عندما تُصدر الحياة أحكامًا

لمى منير

الكتاب : عندما تُصدر الحياة أحكامًا (رواية)
المؤلف : لمى منير
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٣
رقم الإيداع : ٢٠١٣/٤٣٠٥
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 130 - 7

الناشر
شمس للنشر والإعلام
القاهرة : ٨٠٥٣ ش الجامعة الحديثة. الهضبة الوسطى. المقطم
ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٤(٢+) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٢+)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

عندما تُصدر الحياة أحكاماً

"قِصة كل العَرب"

رواية

لمى منير

إهداء

إلى كل من يَضَع حجر أساس على طريق الخير...

إلى كل من يزرع بذور الخير.. ويصنع ما هو خير فقط لأجل الخير..

إلى كل من يبني الأرض، ويتعلم من رحمتها الرحمة ويقدمها للآخر..

إلى كل من يتخلق بأخلاق الأجداد الطيبين..

إلى كل من يعمل ما هو حقّ.. ويسمي الأشياء بمسمياتها الحقيقية..

إلى كل من يتعلم ويُعلم وينِّور الطريق لنفسهِ.. ولآخر لو أمكن..

إلى كل من يُحب ويزرع ويصبر وينتظر أوان حصاد الخير..

إلى أهلي.. وكل من أحب.. الذين مازالوا رغم تقلب الفصول.. كل ذلك..

أُهدي ما كتبت..

المقدمة

كم هي كريمة الحياة عندما تجازي من فعل خيراً بأضعافٍ منه.. وخاصة إذا أكرمتْ من أكرم أبناءها من طيبات جنانه، ومن فتح أبواب حدائق قلبه ليفرح بربيعها كل من التقاه على نفس الطريق...

وكم هي قاسية الحياة عندما تحكم.. خاصة إذا حكمت على من تناوب على عذاب الآخرين، وأقسى أحكامها إذا حكمت على من عذَّب أقرب الناس ومن يحبونه بصدق بلا مقابل وبلا شروط...

وكم هي عظيمة أحكام الحياة وكم هو جليل ميزان عدالتها رغم تأخر قراراتها أكثر الأحيان.

وقد رأيتُ وعرفتُ كثيرين حكمتْ عليهم الحياة بأيام تشبه ألوان قوس قزح، لأنهم عرفوا كيف يفهمونها ويقدسونها ويصبرون على مُرَّها ليتذوقوا حلاوتها..

وعرفتُ أكثر ورأيتُ أحكامها على أناس زهقوا - بكل ببساطة - مشاعر وأجساد وأرواح أبرياء، فكانت لهم الحياة بالمرصاد ترصد كل نيّة سرية أو علنية، وتحكم عليهم بالعذاب؛ رغم ما لديهم من غنى.. وبالسجن رغم أنهم يتمتعون بالحرية ربما في أحلى بقاع الأرض.. وبالدموع رغم الحظ الظاهر للعيان.. وببؤس الأيام حتى الموت..

ولأني كنت شاهدة صغيرة على أحداث كبيرة عاصرتها أو عاصرتُ من عاصرها حتى اعتصرته وصارت أحداثها الماضية تفاصيل حياته الحاضرة وميزان قراراته ولا تكاد تخلو خططه وأحلام مستقبله من بقايا مذاق عصيرها..

ومن غير تفكير أو تخطيط أدخلني؛ كما أدخل غيري؛ بتفاصيل حكاياتها من خلال صوته ومشاعره وردود أفعاله، فصارت حكايته التي يرويها أحكامًا له ولنا في كل الحياة... لأجل هذا، أحببت أن أُسمي هذا الكتاب "عندما تصدر الحياة أحكامًا".

ولأن الزمان هو زمان العرب.. كما كان من الأزل وإلى الآن..
ولأن أخلاقنا تشبعت مما أكلنا وتعلمنا من أرضنا العربية.. أينما وضعنا الرحال..
ولأن القصة التي ستأتي.. جرت وقائع أحداثها على أرض عربية الأصل والهوية..
ولأن الأشخاص في كل الأحداث هم من أصول عربية.. من أرض قدر لسكانها أن يعيشوا سويًا مع الأنبياء والقديسين والأولياء..
ولأن العرب هم أول من عرف الإله الواحد مالك الأرض وما فيها.. وأول من سّن القوانين والشرائع.. وتَعلم وعَلَم الأخلاق الدينية والمدنية..

ولأن الإنسان العربي هو أول من نظَّم الحياة.. وعَرَف كيف يتاجر بأخلاق ويزرع ويصنع بأخلاق ويبني الأبراج والسدود

بأخلاق.. فكان صديقًا وصادقًا مع كل ما خلق الله على الأرض وفي السماء..

ولأن العرب أول من صنع الحياة والحضارة والتاريخ.. ومن ثم صدَّروها إلى كل العالم..

ولأن أكثر العرب يمتازون بطيبة قلبٍ.. تمزج أحيانًا كثيرة الخير مع الشّر خوفًا من التعدي على الحقوق والأخلاق حتى لو سُلبت حقوقهم وحريتهم..

ولأن العرب هم أصحاب الزمن الجميل.. زمن كان فيه الإنسان مع أخيه الإنسان.. في السراء والضراء.. والصحة والمرض.. والجوع والشبع.. والحب والحرب..

ولأن ما كُتب هو "قصة كل العرب".. قصةٌ منهم وفيهم ولهم.. وأؤكد بأن من سيقرأ أحداثها لا بد أن يتذكر كثيرًا من القصص التي سمعها أو عاشها.. قصص تجسد الخير والشّر.. والرحمة والعنف.. والمحبة والبغض وهم يسيرون معًا على نفس الطريق..

لكل هذا وأكثر...

وضعت تحت اسم الكتاب عبارة "قصة كل العرب".

تقديم

هذا الكتاب هو قُصة إنسان واحد، وهو ويشبه قصة كل إنسان.. هو قصة امرأة واحدة فتحت باب الحياة لنفسها لتُصبح عائلة مُكونة من عدد كبير من الأفراد.. أبناء وأحفاد وأولاد أحفاد، كانت مميزة عن مثيلاتها في ذلك الزمان..

تبدأ قصتها منذ جاءت إلى هذه الدنيا وهي حاملة كل بشائر الخير على سمات وجهها.. وكبرت مع الأيام وتعلمت الخير، ومهما صادفت من شر لم تعرف كيف تفعل مثلهُ ولا حتى فكرت أن تجازي من يعمل لها الشّر بمثلهِ.. عاشت في بلدٍ كُتبت عليهِ الحروب، فقد مضت العشرات والعشرات من السنين وهو تحت وطأة تلك الحروب، التي كانت مرة حرب أعصاب ومرة حرب جوع وصراع مع الفقر ومرة حرب موت ومرات كثيرة حرب نار ودمار.. وقد رأى الناس الذين عاشوا في ذلك البلد مآسي وأحزانًا اختلفت من سنةٍ لأخرى ومن عقدٍ لأخر، ولم يتمنوا يومًا أن يرى بشرٌ ما رأوه هم.. وقد رافقت تلك الحروب الأجيال واستمرت مع كل الحكومات التي حَكَمت...

لذا فهذه القصة هي مزيج لقصص بشر عاشوا وسط بلد طالما حكمهُ الشّر ومسببوه، والذين كانوا أكثر بكثير من الخير وفاعلوه.

والبطلة في هذه القصة عَرَفت كيف تصنع الخير، ولكل من حولها، منذ يوم وَعت لهذهِ الحياة وإلى اليوم الذي فيه انتقلت إلى الحياة الأخرى لترى ربها الذي أحبتهُ بكل ما استطاعت، كما أحبها هو طوال سنوات زيارتها إلى هذه الأرض؛ وما زال..

لقد تفاجئنا لمَّا رأينا ما عشناه لسنوات طويلة قد كُتب بقصة صغيرة بعدد أوراقها، لكنها كبيرة بمعناها.. فقد أحبت الكاتبة أن تروي القصة لتكون تاريخًا وشاهدًا على أيام أولئك الناس التي عاشوها مع كل تلك الحروب العديدة والتي لا تخلِّف سوى الألم والحرمان والمرض.. وتكون شاهدًا أيضًا على الشَّر الذي إذا تملك من إنسان لا يعد ذلك الإنسان يستطيع أن يرى ما فيه وفي الآخرين من خير.

كتَبتْ هذه القصة على طريقتها، لكنها أعطتها المعنى الأكمل كما سمعنا نحن وعشنا وروياناها لها وللآخرين.. وقد وَصَفت الأحداث كما حدثت في الواقع، لكن الواقع طبعًا كان أقسى وأمر بكثير، فما عشناه كان يومًا بيوم.. وما أطول تلك الأيام خاصة الحزينة منها.. بل وحتى الأيام المُفرحة، فقد كانت لا تخلوا أبدًا من الترقب والخوف والحذر من أن تَحصل مشكلة ما بين هذا وذاك.. فقد عشنا في عائلة فيها الكثير من الأقرباء والأخوة عرف القليل منهم فقط أن يكون للآخرين أخًا أو قريبًا.

وقد عشنا تلك الأحداث مع آلامنا المستمرة من كل ما حدث وما كان يحدث من شر.. والذي طغى كثيرًا على ما فرحنا بهِ من خير.. خاصة وأننا كنا الأولاد الكبار في تلك العوائل، لذلك أرغمتنا الحياة بالتفاعل مع قصص الأكبر منا وعيش ما يحدث للأصغر وتحملنا المستمر لمسؤولياتهم بمحبة أعطاها لنا ربُّ الرحمة والعدل..

وبعد أن كنا نستمتع بنقل تلك القصة طوال السنوات ومن جيل للآخر ليتعلم ويطلع على جذورهِ وتاريخِهُ لم نتوقع بأن تُنشر يومًا.. لأننا اعتقدنا أنها قصة خاصة بعائلة كان لها ظروف تخصها؛ حالها حال الملايين من العائلات في كل العالم.. لكن عندما كُتبت؛ ونتيجة للخبرات التي عشناها في كل حياتنا الماضية؛ رأينا بأنها فعلاً قصة مميزة لعائلة فيها الكثير من الأفراد المميزين بالخير والشَّر طبعًا.

وقد أحببنا فكرة نشرها، لأن العالم اليوم ومع السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين قد تغيَّر كثيرًا.. فقد عشنا نحن؛ ونظن أيضًا عاشَ كل العرب سابقًا؛ ببساطة قلب، وعرفنا كيف نشكر الله ونتكل عليهِ في كل وقت وظرف.. لكن الزمان اليوم اختلف باختلاف الإنسان وبُعدهُ عن نفسهِ وعن من حولهِ.. ونحن متأكدان بأن العرب لا بد أن يرجعوا يومًا إلى ذواتهم، فهم أُمة لا تعرف سوى أن تتكل على ربها، فأمة عرب لا بد أن

تحمل دومًا معنى اسمها (ع / رب).. وتتكل على من خلقها وأكرم أرضها بكل الأنبياء الذين عرفهم البشر وعاشوا معهم وتعلموا واهتدوا وشفوا على أيديهم.. لهذا سنرجع يومًا إلى جذورنا لنجد بعد طول عناء وضياع في الحياة؛ أن الحياة هي فعلاً كما عاشتها تلك المرأة النقية بطلة القصة، وما تعلمته من سنوات عمرها الطويلة عن الحياة التي هي مزيج بين الخير والشّر.. ومع مزيجها هذا تعطي للإنسان الاختيار بين الطريقين وعندها سيغرَف مما اختار وأراد بقدر ما يريد، فيكون مدى عمرهِ على ما يريد.

التوقيع

شاهدان على الأحداث

سنوات الرجاء

هذهَ هي قصة لإنسان، وهي قصة كل إنسان.. وقد كَتبتُها ليتعلم ربما منها كل إنسان يريد أن يعلم ويتعلم..
أبطال هذهِ القصة بشر كما البشر في كل زمان ومكان، لهم حياتهم بما فيها من خير وشّر.. قد لا تختلف كثيرًا عن قصص عوائلنا في المجتمعات العربية، لكنها مميزة، إذ لا يمكن أن تحصل في حياة كل عائلة أحداث كالتي حدثت في هذهِ القصة التي فيها أعمال رحمة تصل لحد القداسة، وأعمال عنف تصل لحد عيش جهنم على هذهِ الأرض.

وقد قرَّرتُ أن أكتبها بعد أن استوعبتها وفهمتها ووعيت لكل حدث سمعتهُ.. وليتعلم منها كل إنسان عربي يقرأها كيف يُهذّب أفكار نفسه وروحه بكل ما فيهما من خير وشّر.. فهي قصة كل العرب.. أمة ميزان الخير والشّر. وليعرف أيضًا الناس في الغرب أننا عشنا قصصًا واختبرنا واقعًا ربما أجمل وأحيانًا أمّر مما مرّوا هم بهِ.. وما نراه من أعمال تُخلد قصصهم التي نعترف أنها جميلة وتحمل من العلم ما يقود العقل إلى الاندهاش، لكن في قصص العرب هناك شيء يقود إلى العَجب لأن الإنسان يتعجب عندما يرى آية.. والعرب بقصصهم هم آية من الحكمة لكل العالم.. إذ إننا نحن العرب نحمل الحكمة بفطرتنا ونحمل العلم بما نتعلم وباستطاعتنا أن نمزج علمنا مع حكمتنا الفطرية التي وُلدت معنا وعجنتنا لتنتج عندئذٍ "قرارات" لكل

نواحي الحياة تكون أكثر حبًا ورحمة وأقل ظلمًا وقسوة، لأن العلم يولد العدل أما الحكمة فأنها تولد الرحمة والعدل، والرحمة فوق العدل.

شخوص القصة أناس نمت جذورهم مع نهايات القرن التاسع عشر ومازالت أغصانهم وثمارهم تنمو وتلامس الشمس إلى اليوم الذي فيه نعيش بكورية سنوات القرن الحادي والعشرين وربما منهم من سيطرق أبواب قرون آتية.. مع اختلاف المكان والزمان؛ لا اختلاف العقل والقلب.

تبدأ أحداث القصة حوالي سنة ١٨٧٠م، في قرية صغيرة بمدينة في دولة عربية مترامية الأطراف تحت لواء الحكم العثماني بأجواء شمالية يحملك نسيمها إلى أن تسافر وأنت في مكانك، إذ الهواء يأخذك بلا شعور منك إلى عبق الحضارة الآشورية - البابلية، فالأشخاص في قصتنا هم سليلو هذه الحضارة، يحملون بدمائهم بصمات مَن صَنعوا تلك الحضارة ويحاولون أن يعيشوا ما تعلموه وتوارثوه.. لكن الحضارة الآتية لا تشبههم والسلطة تَجبرهم على نسيان حضارتهم والتطبع بحضارة عثمانية - أوروبية.. ولأنهم بسطاء يحاولون دومًا التقوقع داخل أُطرهم وحدودهم مُحافظين على تاريخهم المتوارث وعدم تجاوز سلطة الحكم بآنٍ واحد.

لديهم حقولهم وممتلكاتهم التي تكفيهم، إذ يعيشون كما عاش آباؤنا الأوائل مُعتمدين على الزراعة وسقي تلك المزروعات اعتمادًا على أمطار الشتاء وكذلك من الآبار التي تحفر بأيديهم.. وتصنيع ما يكفيهم من مأكولات مما تزرع أيديهم ومما يتوفر من القرى المجاورة.

كانوا مؤمنين ومقتنعين بأن الطبيعة تُعطيهم كل ما يحتاجون، مثلما اقتنعوا أنهم لن يتغيروا يومًا عن عاداتهم التي توارثوها ولم تقبل عقولهم فكرة التغيير عن ما هو سائد يومًا ولم يكن لهم أي علاقة بما يجري في السياسة من احتلال لدولتهم.. فقد تعلموا أن الدولة هي هذه القرية التي يعيشون فيها، وكل غريب يأتي هو "ذابح" أو "مجرم" كما يسمونه بلغتهم "نخرايا" وهذا التصور بالطبع تعلموه أيضًا من واقعهم لأن الغرباء كانوا يأتون دومًا للسرقة والقتل وأخذ محاصيل حصادهم بالقوة وباستخدام الأسلحة البيضاء.

وكل غريب يدخل إلى مناطقهم كانوا ينظرون إليه كـ"عدو" إذ بخبرتهم كونوا هذه النظرة.. فلم تكن عقولهم تستوعب فكرة أن يدخل بتجارتهم أي غريب أو يشتري حقولهم أو ممتلكاتهم، حتى لو ماتوا جوعًا.. والغريب هنا ليس الأجنبي، إنما مواطن البلد ذاتهُ لكنه يسكن ربما بمدينة أخرى تبعد بعض الكيلومترات عن قريتهم، أو يعتنق دينًا غير دينهم، أو مؤمن بمعتقدات لا يؤمنون هم بها.

كان عالمهم الفصول الأربعة.. أو الطبيعة بما هي عليه وبما نحن نسيناه.. فالشتاء هو فصل السُبات؛ ففي النهار يقومون بأعمال منزلية بسيطة، وزيارات للقريبين، والصلاة، وانتظار هطول المطر الذي اعتمدوا عليه ليروي أراضيهم المُنسابة التي تُغطيً كل سهل الشمال.. والجلوس ليلاً أمام مدفأة الحطب الصغيرة التي كانوا يصنعونها بأيديهم وهم يوقدون مصباح زيتي صغير يعمل بواسطة فتيلة صُنعت من قبل أهل القرية وزيت الزيتون أو السمسم الذي يملأ أرضهم والأراضي المجاورة، لأن الطاقة الكهربائية لم تكن قد وصَلت بعد، وكانوا يتبادلون السلع بالمقايضة مع بقية القرى المجاورة.. أي يعطون قمحًا أو شعيرًا ويأخذون زيتًا وزيتونًا أو تينًا وتفاحًا والخ...

أما الربيع فهو انتظار يوم بعد يوم ورؤية الحقول وهي تتحول إلى اللون الأخضر والزرع ينمو وفي نفس كل منهم روعة انتظار أيام الحصاد القريبة، وفرحة جز صوف الخراف التي كانوا يمتلكون منها قطعان كثيرة.

فالربيع عندهم هو زمان الفرح وكل الطبيعة مُحتفلة بقدومهِ، الأرض، الحيوانات، والسماء، فهو ولادة جديدة لفرح الإنسان الذي أعطاه الله هذه الأرض "النعمة" التي هي كل الحياة.

وتمضي شهور الربيع ويحين وقت الحصاد، يا لها من فرحة غَمرت كل القرية فالحصاد يعني العمل وتخزين ما يكفي من

الحبوب بعد تصنيع بسيط لها، وبيع بعض الغلال لكسب النقود التي لا بد أن تكفي لكل السنة القادمة حتى الربيع الآتي.
كان كل واحد من أهل تلك القرية يذهب مع عائلته إلى الحقل ويحصد ويساعد أحدهم الآخر، إذ هم ما زالوا يعيشون بنظام "العائلة هي القرية والقرية هي العائلة ".

ويأتي الصيف والنقود تملأ الجيوب، ملابس جديدة، تنقل بين الأقرباء، زيارات إلى المدن الجبلية الخلابة القريبة من قريتهم، أعياد دينية تملأ الأجواء، والرجال يقتنصون البنت الحلوة في أثناء هذه الأعياد.. إذ لا بد للرجل أن يختار شريكته لكل الحياة، وهذهِ هي أفضل مناسبة للقاء.

وبعد انقضاء الصيف بأفراحه يحين وقت قدوم الخريف فتُحرث الأرض من جديد وتُحضر بذور نظيفة صافية لا مكان للغش ولا حتى عرفوا ما هو الغش فبقلوبهم هناك دومًا إيمان بأن هذه البذور هي لبيتي وأولادي ولمن أحب ولأخي الإنسان الأخ الذي يساعدنا بأشياء لا نملكها ويعرفنا بطرق لم نعهدها من قبل فلماذا إذن الغش..

كانوا بسطاء وآدميين يحملون بذور الخير في قلوبهم مثلما يحملون بذور الزرع في جُعبهم.. وكان منهم من يحترم أمهُ الأرض فيقول هذه الأرض هي المرأة الكبيرة التي تحمل وتلد فلا يصح الطمع وأذيتها، فيقرر أن يزرع زرعه سنة ويعتني

بالأرض ويهيئها للسنة الأخرى، أي زرع سنة ويليها سنة راحة.. وفي قلب كل فلاح منهم صوت يسمعهُ يقول الله كريم وأرضي كريمة لذلك سترزقني بسنة واحدة غلة لسنين كثيرة وتعتني بي وبأطفالي وماشيتي مثلما أعتني أنا بها في سنين راحتها.

وتتوالى السنون هكذا...
وفي ربيع أحداها تُرزق عائلة من تلك القرية ببنت جميلة.. ملامح الحكمة النقية والذكاء على مُحياها تحمل جمال أمها ولها عيون والدها الذي عُرف بـ"الحكيم"، كل من يراها يُذهل لحكمة الرَّب الذي صوَّر بعضًا من حكمته في تلك العينين العسليتين.

لُقب الأب بحكيم القرية أو ما نسميه اليوم "طبيب" أو "دكتور"، فقد كان يرى بعيون مرضاه العلاج، لم يدرس الطب ولم يعرف القراءة والكتابة حتى، لكنه يرى بفطرتهِ المرض ويُشخص بفطرتهِ وإحساسه العلاج من أعشاب الأرض نفسها، لا يستورد ولا يسافر، بل علة المريض تعلمه وتدله على العشب اللازم كدواء للعلاج، كان المرضى يأتون إليه من القُرى والمدن المجاورة فكان بيته دائمًا مليئًا بأناس يطلبون الشفاء من الله على يد هذا الحكيم.

ولأن الوالد كان حكيمًا فقد رأى في عيني الصغيرة الجديدة هذهِ؛ والثالثة بعد أختيها؛ رأى ذكاءً وتحديًّا ونظرة ثاقبة صافية نقيةً

وشفافة.. لذا قرَّر أن يسميها " النقّية الذكاء "، وتنبأ بفطرة الوالد الفلاح والحكيم أن هذهِ الطفلة سيكون لها شأنٌ كبيرٌ في عالمها البسيط.

وتمر الأيام، وتكبر الطفلة " النقّية الذكاء " فتظهر علامات البركة على وجهها فقد كانت مميزة ولا تشبه أطفال ذلك الزمان.. إنها تحمل وجهًا أبيضًا مُشعًا وضفائرَ شقراءَ وعيونًا تلاحظ وترى وتحفظ كل ما يدور حولها، ومنذ أن وُلدت بدأ مرضى والدها ينقلون أخبارًا عن الحكيم ذي الأيدي الساحرة التي تُشفي من تلامسه بوقت أقل من ذي قبل.. وكلما كبرت كُثرت غلال أراضي فلاحي القرية فبقدومها وكأن بركات السماوات قد حَلَت على بيتها وعائلتها وعلى كل تلك الأرض.. وبدأت تكبر.. وتكبر ويشجعها ويباركها كل من حولها.

وفي أحد الأيام تذهب بفطرة وبراءة الأطفال إلى غرفة عمليات والدها الحكيم وتراقبهُ من بعيد وهو يُعالج مرضاه ببساطة طبهِ وأعشابهِ وبوفرة حكمته التي مَنَّ عليهِ بها الله.

وقد تشاركهُ أحيانا ببراءة الأطفال باختيار ووضع وصفة لهذا المريض أو ذاك فيتركها الحكيم على سجيتها وطالما آمن بإحساسها الذي كان يصدقهُ دائمًا، ولم يمنعها من أن تتعلم مهنتهُ فقد تُفيدها هي وعائلتها في المستقبل.

لكنها بنت، والبنت في ذاك الزمان هي بنت؛ يجب أن تتعلم كافة أعمال المنزل من التنظيف والطبخ والحياكة والخياطة البسيطة والتطريز، إضافة إلى الأعمال التي تخص الحقل من زرع وحصاد وتصنيع الحبوب.. لأنها سوف تتزوج بعد سنين قليلة فالبنت آنذاك يجب أن لا تتعدى سن السابعة عشرة وهي لم تتزوج بعد، إذ كانت تُعتبر "عانس" أو ما أطلقه البعض من هواة ركوب القطار بجملة "فاتها قطار الزواج" وعند ذاك لن يلتفت إليها أي من الرجال حتى لو حِمل عاهات الدنيا؛ إذ لا بد لهُ أن يقترن ببنت صغيرة وجميلة.. فهذا هو العالم الذي تربوا فيه، وهذه هي تقاليدهم، ومن يتجاوزها عليه أن يتحمل كلام وعتاب كل الناس مهما مرَّت به السنين.

وتكبر البنت الصغيرة الجميلة التي حباها الله والأب والأم بَنَعم الحب الذي استحقته عن جدارة، وها قد أصبحت فتاة جميلة ذكية وجذابة، تعلمت أن تكون امرأة منزل من الطراز الأول، وتعلمت طرق وأزمنة الزرع والحصاد مثل أمها وكل نساء القرية، وتعلمت ممارسة الطب والتداوي بالأعشاب بحكمة أنعم عليها بها الرب.. وعلى يد والدها الحكيم بدأت تصف علاجًا لبعض المرضى الذين يترددون على بيتهم الصغير والغني بالنعم السماوية.

وفي إحدى السنوات، ومع موسم الحصاد، وكل العائلة مشغولة بالحصاد والفرح بما سيأتي، وبعد يوم متعب عُدن الفتيات إلى البيت مع والدهن الحكيم لطلب الطعام والراحة والاستعداد لاستقبال يوم جديد في الحقل.. عندها تفاجأ الأب بمرض زوجته ولم يعرف ما الذي حلَّ بها وهو الحكيم الوحيد في كل تلك النواحي.. ولم يعرف ماذا يفعل لأم بناته فقد أصيبت منذ سنوات بأورام كثيرة في الثدي والآن بدأت تكبر هذهِ الأورام لتتشكل عقدًا مختلفة الشكل والحجم، وأصبحت الأم لا تقوى على الحركة ولا على تقديم المساعدة ولم تنفع حكمة زوجها الحكيم ولا كل علاجاته في ردع مرض عضال كهذا.. لقد أُصيبت بسرطان الثدي؛ لكنهم لم يكونوا قد عرفوا ما اسم هذا المرض أو ما هو، ولا حتى العالم المُتحضر كان يعرف آنذاك أن يسمي هذا المرض.

وبمرض الوالدة تقع فجأة كل المسؤولية على عاتق البنات الثلاث من مُساعدة الأب في الحقل وتدبير شؤون المنزل ومراعاة الأم وهي على فراش المرض.

وتتزوج البنت الكبرى إذ جاءها خطيبٌ قريبٌ لهم، وعليها أن تطيع والدها لأنه هو رجل العائلة الوحيد فليس عندهم أخ يراعي شؤون أخواته في حال رَحَل الأب.

وبعدها بأشهر قليلة تتزوج الأخرى من قريب آخر.. وتبقى البنت الصغيرة "النقّية" لوحدها تراعي شؤون البيت والحقل

وتُساعد الأب في طبهِ، إذ هي مقتنعة أن موهبتها في وصف بعض أنواع الأعشاب للمرضى ورفع الصلاة لهم لا يجب أن تُهمل بل أن تُصقل أكثر، فالناس بحاجة لهم، فلا أحد يطبّب غيرها هي وأبوها في كافة النواحي التي ممكن أن يصلها سكان تلك القرى المتجاورة... إذًا المسؤولية واقعة عليهما، فلا بد أن تتعلم وتساعد من يحتاج.

وفي شتاء إحدى السنوات تُفاجأ " النقّية الذكاء " بعد عودتها من زيارة بيت إحدى قريباتها المريضة بأن أباها نائمٌ في الفراش وهو يلفظ أنفاسهُ الأخيرة ويوصيها بأن تراعي أمها المريضة والتي يشتد عليها المرض عند مطلع كل صباح.. وطلب حضور بناتهِ.. فأوصاهن على البيت والحقول وأعطى لأزواجهن حق ملكية جميع ممتلكاته لأنهم الرجال الوحيدون لديهِ؛ فليس عنده أخ ولا ابن.. والميراث كان يُعطى للرجل فقط في عُرُف القرى تلك، ولأنهم أنسباؤه وأوصياء على بناته لذلك فقد أعطاهم الوصايا على ممتلكات زوجاتهن وزوجته المريضة والبنت الصغيرة التي لا تزال في المنزل تراعي أمها.

وبعد أيام قليلة يموت الأب الحكيم.. وبعدهُ بشهور قليلة تلحقه الأم التي أتعبها القهر والمرض لسنين.. وتبقى ابنتها الصغيرة وحيدة تتنقل بين بيتي أختيها إلى أن يأتي النصيب.

والنصيب هذا كان رجل من أقاربها مزارع بسيط لكنهُ شديد الذكاء والجمال قريب لها أيضًا وقد رآها صدفة في أحد طرق

الحقول وكأن القلوب تآلفت منذ أول لقاء... فيقرر سريعًا خطبتها.. ويتزوجان بعد أيام قليلة، فلم تكن فترة الخطوبة طويلة بل كانت فقط لأيام في أعراف مجتمعهم البسيط، وزوجها الآن سيأخذها إلى بيت أهلهُ لتعيش حياة أخرى مع أناس تعرفهم فهم أقارب لها لكن الآن عليها أن تعيش بينهم كابنة مطيعة مثل بقية بنات ذلك العصر في ذلك المكان.

ووسط فرحتها بأول أشهر زواجها من الرجل الذي عاشت معهُ بقناعة ورضى مُحاولة أن تمحو أيام حُزنها على من فارقها من الأهل في بيتها الأول بفرحها بالبيت الجديد.. ووسط دلال زوجها لها وحبها لأهل زوجها الذين أصبحوا بين ليلة ونهار أهلها بعد أن رَحَل الأهل ولم يبقَ سوى الأخوات اللواتي يتزاورن فقط في الأعياد والمناسبات المُلحة فلم يكن يوجد وقت لمثل تلك الزيارات لأن الكل مُنشغل بعملهِ وحياتهِ كذلك التقليد الاجتماعي هناك كان بأن البيت هو بيت الرجل والكنة هي ابنة ذلك البيت ولا يربطها بقوة إلا رباط هذا البيت الذي تسكن وتعيش فيه وعليها أن تُحب كل من فيه.

وبعد مضي شهور قليلة على الزواج تتلقى الحماه بُشرى حمل الكنة الجميلة "النقّية الذكاء" ولا يسع الحماه إلا أن تزغرد فرحًا بقدوم الحفيد الأول وابن العائلة الجديد بعد أشهر قليلة.

سنوات الاضطراب

وتمر الشهور سريعة، ويحين موعد ولادة "النقّية"، وبمجيء المولود تتوالى الأفراح في قلب الأم الجديدة "النقّية الذكاء" إذ بعد الصبر انفرج الفرح من القلب إلى قلوب كل من في البيت.. وقد كانت تُدلل الصغير الرضيع وتحميه بكل أمانها وتعلمهُ؛ وهو بعد في أشهر عمره الأولى؛ حبها، وتحلم أن يكبر ليحقق الأحلام التي لم تستطع هي تحقيقها لأنها بنت.

ومع زوجها وطفلها الصغير تعيش أحلى لحظات عمرها، لكن ليست كل الأيام جميلة.. فبعد أيام حصاد الزرع وتجميعهُ في المخازن وفي القلوب السعادة بالغلال الكثيرة التي حملتها هذه السنة.. أتوا من يُثيرون الَرعب "الغرباء"، أتوا ليسرقوا كل شيء.. فَخرج رجال القرية للتصدي لمن يريدون أخذ تعب سنوات بكل سهولة.. وعندها تثور المعركة بين الأقرباء والغرباء... وتستمر المعركة لساعات وساعات والكل مُنشغل البال وقلق والسؤال الوحيد الذي يدور في الأذهان يا ترى ما الذي سيحصل هذهِ السنة من جوع إذا سُرقت المؤن والماشية.

وتأتي الأخبار بعد انقضاء الساعات الطويلة من العِراك الذي كان يدار بالأسلحة البسيطة.. وتتلقى "النقّية" مع الكثير من أهل القرية خبر سرقة كل ما لديهم من مؤن في المخازن، لكن ظروفها اختلفت بعد ما سمعت به من فاجعة تختلف ليس عن الكثير، فلا بد أن تأتي كل حرب بخسائر مادية ومعنوية، ولأن

عالمهم بسيط، لذلك فقد أتت حروبهم بالقليل من الخسائر لكنها الكثير بالنسبة لهم فقد سُرقت معيشتهم، وسَرق الموت أزواج وأبناء البعض منهم، ومنهم كان زوج "النقّية" الذي رَحَل وهو يُدافع عن تعبهِ وأرضهِ وأرض آبائه وأبنائهِ.. رَحَل ليتركها أرملة وهي لم تبلغ بعد ربيعها السادس عشر وفي حُضنها ابن له قد أصبح يتيمًا قبل أن يُدرك من هو أبوه.

وبعد انقضاء أيام الحزن والحداد.. تَخرج "النقّية الذكاء" بذكاء فطري مِن عزلتها لتعود إلى حياتها الآن وتحلم من جديد بابنها الرضيع وتقول في نفسها: "عندما يصبح ابني رجلاً سيأخذ بثأره وسيقتل من قتل والده".. لأن فلسفة الثأر هي اللغة التي كانت تسود عقول أناس ذلك المكان في ذاك الزمان.

وبعد مضي سنة والصغير ما زال رضيعًا، وخوفًا من عودة الغرباء لقتل عدد آخر من رجال القرية، تُقرِّر الحماه الهجرة مع أولادها وبناتها.. الهجرة إلى دولة جديدة فتحت أبوابها لقبول مهاجرين من كل بلاد العالم لبناء دولة جديدة تُسمى " العالم الجديد"، ومع الكثير من أبناء القرية والقُرى المجاورة يتم قرار الأقارب للهجرة، ويبيعون بعض ما لديهم من أراضٍ وممتلكات لتكفي ثمنًا لطريق الوصول إلى العالم الجديد، ويتركون الباقي.. إذ علَّمتهم حكمتهم أن يتركوا أموالهم في عدة أماكن، فإذا ضاق الحال بمكان فهناك مكان آخر يُسند.

وتقرر الحماة وأولادها أخذ الطفل الرضيع معهم، فهو ابن ابنهم الذي قُتل مُدافعًا عن أرضهم وهو ما زال شابًا، كذلك فهو الحفيد الأول في عائلتهم وقد كانت في قلوبهم فكرة أن هذا الحفيد قد بعثه الرب لهم كابن تعويضًا عن أبيه الذي قُتل.

ومع قرار الهجرة هذا يُبتر حلم "النقّية الذكاء" في تربية ابنها على الثأر، فلا ثأر ولا حلم بعد الهجرة والرحيل، لكنها مع ذلك تفرح لأن الولد سيتربى ويتعلم أفضل منها ومن والده.
ووسط مشاعر الحزن والفرح هذهِ تُفاجئها حماتها بأن الولد فقط هو من سيأخذون معهم إلى العالم الجديد، أما هي فما زالت شابة وممكن أن تتزوج اليوم أو غدًا أو بعد سنين..

إذًا تقرر الحماة فصل الأم عن ابنها وتهجير الرضيع الذي مازال يعتمد حتى بغذائه على ثدي أمه، ولا تنفع توسلات الجميلة ولا ذكائها النقّي، فالعالم أكبر منها وسلطة أهل الطفل لا تستطيع هي خرقها، فالنظام قروي والكل يقول إن الطفل هو ابن أبيه والأم ستبحث ولو بعد حين عن حماية رجل آخر غير والد الطفل الذي مات، لذلك فحضانة الطفل لا بد أن تكون للحماة والأعمام الذين ينتسب الطفل لهم.

إذًا ضاعت الحيل فلا يريدون أخذ الأم معهم لأنها غريبة عنهم ولا سلطة لهم عليها وربما لأنها أيضًا ستكلفهم بمصاريفها أعباء أكبر ولا يريدون ترك ابنها لها والذي أصبح فرحتها الوحيدة من كل الدنيا بعد الحزن على موت الأعزاء.

وبعد مرور أيام حزينة جفت خلالها دموع "النقّية"، وبعد إلحاح جميع الأقارب بضمنهم أختيها؛ توافق وهي مُكرهة على أن تترك ابنها يُهاجر مع أهل أبيه فلا حيلة لديها وسط عالم مليء باللؤم والقساوة، ولا مكان لنقّاوتها فيه.

ويسافر الرضيع مع أهلهُ، وتعود أمه تتنقل بين بيوت الأقارب وهي تبكي أغلب ساعات اليوم؛ خاصة كلما أحست بجوع رضيعها، وكلما خرجت من ثدييها قطرات الحليب وليس في حضنها من أحبتهُ بكل ما في قلبها من الحب. وتكتشف يومًا بعد آخر قسوة العالم الذي تعيش فيه وجفاف الحب منه كلما جفَّ الحليب من صدرها.

وتتعلم من جديد أن تتعايش مع الوضع الجديد، وتعود مرة أخرى لممارسة الطب مع موهبة شفاء أكبر، فقسوة الآخرين زادتها خيرًا لمن هم بحاجة مثلها للشفاء.. وكلما رأت طفلاً مريضًا تذهب إليه وتمسك برأسه وهي متذكرة ابنها الذي أُخذ منها ظلمًا وتتلو بعض الصلوات التي لم يعرفها أحد، فقد حفظتها كـ "سر" بينها وبين ربها.

وما من طفل مريض لمسته ألا وشفى من أي مرض اعتراه بعد ساعات قليلة.. فعرفها أهل القرى المحيطة كلهم بأنها " النقّية الذكاء " التي ظُلمت ولا تزال تصنع الخير أينما ذهبت.. فكانت تطلبها كل أمٍّ ترى علامات المرض على وجه ابنها وكانت "النقّية الذكاء" تلبي نداء كل من بهِ سقم.

وكلما أعطت أكثر.. زادها الله أكثر من كل نعمة. وبدأت تؤمن شيئًا فشيئًا أن العطاء هو أول طُرق استلام النَعَم السماوية.

وذات يوم وبينما هي في بيت إحدى أخواتها؛ جاءت لزيارتهن امرأة من أقاربهن لكن تسكن في إحدى القرى القريبة المجاورة وتربط بينهن صلة دم ونسب من قديم الزمان.. وروت لها الأخت قصة شقيقتها "النقّية الذكاء"، وبعاطفة شرقية ممزوجة برحمة وطيبة وبساطة أهل ذلك الزمان بكت المرأة على ما حلَّ بقريبتها "النقّية الذكاء" وشعرت بأن من واجب كل قريب الأخذ بيدها لتكون من جديد امرأة لها بيت وأسرة واستقرار مثل النساء الأخريات.. فعَرضت عليها الزواج من أخ لها ولكن "النقّية" لم تكن قد رأتهُ يومًا ولا تعرف حتى من هو ولو أنه من الأقرباء.. فاتفقت أختها مع القريبة وحددتا يومًا تجلب فيه عائلتها وأهلها وأخاها لرؤية هذه المرأة الجميلة..

والشاب المتقدم للزواج كان منذ وقت يبحث عن فتاة جميلة، شجاعة ومميزة تختلف عن الأخريات تكون له عونًا وسندًا باختلاف ظروف الحياة التي يمر بها، فهذا هو الشعار الذي طالما ردَّدهُ كلما كلَّمهُ أهله وقدموا لهُ بعرض للزواج.. ولم يتنازل يومًا عن هذه المواصفات التي يجب أن تتحلى بها زوجة المستقبل.

وفعلاً تتم الزيارة، ويُعجب القريب بالجميلة وبقصتها ويتقدم مرة أخرى بعرض الزواج، وهذه المرة يطلبها بلسانه وأمام أهله وإخوته وكل من حَضَر معه في تلك الزيارة.. لكنها ترفض طلبه أيضًا لأنها أرملة وهو رجل لم يسبق له الزواج، وربما سيكون هذا سببًا للإيقاع به فريسة لوقاحة ألسنة الناس، ويحترم هو رفضها.. لكنه بعد أيام يفكر في نفسه قائلاً إنني إن لم أتزوج من هذه المميزة صاحبة القامة الشامخة والوجه الطفولي ذي الملامح الناعمة والمختلفة عن كل ما رأت عيني من النساء والتي تحمل قيم الشرف في فكرها كما في جسدها، فإني سأخسر فرصتي هذه وربما سأندم عليها طول العمر.

لقد أحسَّ وكأن قلبه دليله بأن هذه "النقّية " هي الشجرة التي يسند ظهره عليها إذا أتعبته الدنيا بتقلب أيامها.

فيقرر عندها أن يذهب مرة أخرى إلى أقاربه لتجديد طلب يدها للزواج. وبعد عدة زيارات وإلحاح تقرر الجميلة "النقّية الذكاء" الموافقة على الزواج.. وعندها تحاول أن تَشُد كل قواها وتكبت حزنها على أهلها وزوجها الراحل وابنها الذي أُخذ منها ظلمًا وكل ما حلَّ بها، وتضعه في مكان ما من فكرها بعد أخذ درس بليغ وحكمة تعلمها كيفية التعايش مع المستقبل والوضع الجديد الذي سيكون بعيدًا هذه المرة عن أختيها في قرية مجاورة لم تراها وأناس أقرباء تعرفت عليهم منذ أيام وسيصبحون أهلها الجُدد.

وبعد أيام الخطبة تتم مراسيم الزواج، فيُحضر لها الزوج أكثر مما تحلم به أي فتاة في ذلك العصر من ذهب وفضة.. فالعريس ذو شأن وعائلته تملك الكثير من الحقول والأملاك ورؤوس المواشي.

وتُزف "النقّية" من قريتها إلى قرية العريس بقافلة من الجِمال وهي تتوسط الموكب بلباس عرائسي فاخر.. ووسط نظرات محبة البعض وحسد البعض الأخر تودع بدموع قريتها وأيامها التي مضت بكل ما فيها من حزن وفرح لتصل إلى القرية الجديدة التي ستكون من الآن مكانها وأيام زمانها الآتي.

ووسط زغاريد أهل العريس وأقاربه تحط العروس الجميلة الرحال بعد رحلة استمرت لساعات ليستقبلها البيت الجديد والعريس والأهل والأقارب الجُدد، فكل شيء الآن أصبح جديدًا ولا بد لصفحة الماضي أن تُطوى.

وبعد انقضاء الأيام السبعة للعرس حسب التقاليد المتبعة آنذاك والتي كانت أجمل مما حلمت به يومًا.. تَتَحضر "النقّية الذكاء" لقبول وضعها الجديد والبدء بممارسة واجباتها وما عليها أن تعملهُ في البيت والحقل مع ممارسة طبها البسيط الذي ما أن سمع به أهل القرية تلك حتى أتى إليها كل من بهِ داء ولم يمنعها زوجها المُحب من إعطاء ما رزقها بهِ الله من هبة الشفاء للمحتاجين، بل كان يشجِّعها على عمل الخير- واعتبرها مصدر

بركة لهُ ولبيتهِ إذ تحسنت أحواله أكثر وأكثر منذ أن دخلت هذه المرأة بيتهُ وعقلهُ وقلبه.

وتمر الشهور الأولى مُسرعة من زرع إلى زرع ومن حصاد إلى حصاد ويُرزق الزوجان المُحبان بطفلة جميلة، فيفرح بها كل من في البيت وتقرر حماة "النقّية الذكاء" أن تربيها لأنها طالما حلمت أن يكون لها بنت ولم يشأ القدر..

إذًا مرة أخرى يؤخذ من الجميلة طفلٌ لها، لكن هذه المرة تُربى طفلتها في بيتها، فالحماه تسكن مع ابنها في نفس البيت لأن البيت آنذاك تسكن فيه كل العائلة مهما كبرت فالبيت للكل والحقول للكل ولا مكان لأنانية هذا العصر في قلوب أناس ذلك الزمان.

وتمر الأيام.. وتحمل "النقّية الذكاء" مرة أخرى، لكن هذه المرة تُرزق بصبي جميل ذكَّرها بابنها الذي هاجر مع أهل أبيه ولم تره أو حتى تسمع عنه أي خبر منذ سنوات، فتقرِّر أن تسميه بنفس اسم أخيه الذي أخذوه منها بكل قسوة علَّ الاسم يُشبعها عندما تلفظهُ ويُفرحها بعد الحزن، ويملأ الفراغ الذي تركهُ رحيل ذاك الطفل في قلبها.

ويقرر أنسباؤها أن يعطوها القسم الذي يخصها من ميراث أبيها لأنها أصبحت مسئولة من رجل، فتضم ملكها لملك زوجها فقد أصبحوا واحدًا في عُرف الله والمجتمع.

وتستمر الحياة، فالصيف قادم والحصاد وفير والأعياد على الأبواب والأطفال الصغار لا بد أن يتعرفوا على تقاليد مجتمعهم لأنهم سيكونون جزءًا منه في الغد القريب.

ووسط الأفراح تلك تقرر الحكومة العثمانية المُحتلة أن تَشن الحرب على من تسميهم بـ"المتمردين" أو "العصاة" في الشمال وتزج كل رجال تلك القُرى بمعمعة هذه الحرب، فالأرض عربية - ولو أنها تحت الحكم العثماني – ولا بد لأهلها أن يدافعوا عنها ويحاربوا من تمردوا على الحكم.. فيذهب كل الرجال إلى المدن الجبلية في أقصى الشمال ومعهم بالطبع زوج "النقّية الذكاء".

وتبدأ رحلتها الجديدة، فقد أصبحت مسئولة من جديد عن العائلة والبيت والأهل والحقول والأولاد، وكانت تأمل وتصلي دومًا ليعود زوجها سالمًا وفي قلبها خوف من تجربتها الأولى وخوف من أن يعيد القدر نفس صورته الحزينة مرة أخرى.. لكن الزوج المُحب لا يكف عن إرسال الأخبار لزوجتهِ التي صانت بيته وعمله وأولاده وشرفه كل زمن الحرب التي استمرت لسنوات.

وتفاجأ " النقّية الذكاء " في أحد أيام الشتاء القارس بعودة زوجها إلى البيت وهو مُنهك القوى من قساوة أيام الحرب وشدة البرد ليجد الأولاد قد كبروا، فقد غاب عنهم لسبع سنين مرَّت كأنها آلاف من السنين.

فالحرب توقفت بأمر حكومي والمتمردون ما زالوا متمردين متفرقين هنا وهناك في الجبال البعيدة عُصاة عن الحكومة.. وكان كل الشعب يترقب ما الذي سيحدث في الأيام والشهور القادمة، لكن هذه المرأة "النقّية" أرادت أن تعيش واقعها لحظة بلحظة ولا تفكر بأمر الغد لخوفها من الذي ممكن أن يخبئه الغد لها، وكانت قد ازدادت جمالاً رغم سنين غياب زوجها الذي ازداد حبهُ لها بعد أن سَمَعَ من أقاربهِ وأهلهِ عن الزوجة التي اختارها واعتبر زواجهُ منها أحكم قرار أتخذه في حياتهِ، فهي فعلاً كما أرادها؛ الشجرة المثمرة التي يُسند عليها ظهرهُ ويأمن تحت ظلها وسط تعب الأيام.

ولم يبقَ الزوج المُحب المشتاق لحُضن زوجتهِ وأمهُ وبيتهِ فترة طويلة فسُرعان ما طرقت الباب أخبار عن حرب أخرى ستقوم من جديد والجميع قلق فالوقت لا بد أن يأتي ليطرق الشَّر أبواب البسطاء ويجعلهم يتركون من جديد بيوتهم وأحباءهم ويتوجهون إلى ساحات الحرب مرة أخرى.

لكن الآن الحرب كبيرة وعالمية، والأخبار سيئة جدًا.. فقد قامت الحرب منذ وقت في أوروبا التي لا يفصل بينها وبين مسرح أحداث القصة غير دولة واحدة اشتدت فيها نيران تلك الحرب العالمية التي سُميت بعد ذلك بـ"الأولى" وهي أيضًا الدولة المُحتلة للبلد والكل كان يترقب متى ستصل الحرب

للحدود ومتى سينتهي هذا الاحتلال العثماني الذي لا يوشك أن ينهي حربًا ليبدأ بأخرى وربما يكون الحل بحرب عالمية تُصحح الأوضاع وتنهي الاحتلال وتُخرج المُحتلين.

وتمر شهور لم يروا أقسى منها، ويتجه البريطانيون إلى الدولة التي يحتلها الأتراك العثمانيون منذ عشرات السنين ليخرجوهم منها بحرب شرسة، إذ هي حرب عالمية فلتكن إذا عالمية. وتبدأ الحرب من جديد، ولا بد لأهل البلد أن يدخلوها فهم مُحتلون وتحت سلطة أجنبي، والذي يعارض يعتبر من العصاة المتمردين فأما الموت أو الهرب إلى الجبال والعيش فيها انتظارًا للموت.. ولم يكن أهل تلك القرى من الناس المتمردين بل كانوا أناسًا بسطاء مطيعين لظروف الزمان لذلك ما لبثوا أن سمعوا بحاجة البلد لهم ليقاتلوا حتى توجهوا إلى ميادين المعارك ومنهم زوج "النقّية"، لقد تركها مرة أخرى مع أهله وأبنائه ومع كل المسؤولية الملقاة على عاتقها من رعاية أبنائه وبيته وكل الحقول الشاسعة، وذهب إلى ساحات الحرب مع بقية الرجال.

أما "النقّية" فقد كانت في قريتها تقضي أيامها وهي تعمل وتصلي للزوج والبلد، فهذه المرة الخسائر كثيرة فالحرب قاسية وكبيرة وفيها أسلحة لم يعرفوها رجال ذلك البلد من قبل.. وتتوالى الخسائر.. ففي كل يوم يذهب الكثير من الرجال ضحايا

على الحدود. ويملأ الخوف قلب"النقّية" التي اكتشفت بعد رحيل زوجها إلى الحرب أنها حامل ولا تعرف متى ستزُف لرفيق دربها هذا الخبر السعيد.

وبعد أشهر الحمل تُرزق "النقّية" بمولود آخر صبي جاء وسط فرح الأقارب والجيران والحماه التي أصبحت للنقّية الصديقة والرفيقة والأم، وأيضًا وسط خوف وقلق أمه وغياب أبيه الذي لم يتمكنوا من رؤيته منذ أشهر عديدة؛ ولا حتى سمعوا أخبارهِ.

وبعد أيام يأتي أحد الأقرباء الذي رجَعَ إلى بيتهِ بإجازة قصيرة لإصابتهِ أثناء العمليات العسكرية، وما أن سمعت "النقّية" بخبر عودته حتى ذهبت مُسرعة للزيارة وتأدية الواجب، وكذلك لسماع أخبار من هناك عن زوجها الذي ما زال والحمد لله على قيد الحياة وبصحة جيدة.. فتطلب من الرجل بأن يبلغ زوجها بعد عودتهِ إلى هناك بأنه رُزق بصبي... ويتلقى الزوج الخبر ويفرح بولادة ابنه الجديد الذي لا يعرف متى سيراه.

وبعد سنوات صراع مع المعارك والأجواء القاسية ونفوذ سلطات الاحتلال تتوقف الحرب عالميًا ويفرح الشعب ببصيص أمل أتاهم من ساحات النار.. لكن الأمل ضعيف أمام مطامع الكبار وأصحاب النفوذ، فالحرب في الشمال كانت أشبه بوقود يوهم البسطاء أنه على وشك أن يُطفأ، حتى يفاجئهم بنارِ تحرق ما تحتها وما فوق.

وتستمر نيران الثورات لسنين، فدستور حياة الناس هناك ما يزال عشائريًا، وقوم العشائر لا يرضون بغير الحرية مهما طال الزمان وكثرت الضحايا، بل وتشتد عزيمتهم أكثر كلما اشتدت نيران أسلحة الأعداء.. وكل خسارة بشرية ومادية عندهم تترجم الأمل بربح الحرية التي ستأتي ولا بد أن يُدفع ثمنًا لها أرواح تذهب لتفتح الطريق لأرواح جديدة ستعيش على أرض حُرَّة معطاءة وكريمة.. فلابد للأرض أن ترجع لأصحاب الأرض يومًا بات قربه وشيكًا.

ويتحقق الحلم ويفوز عشائر الأرض في أخر أشواط الحرب وتنتهي الثورات والمعارك وكل أيام العنف ويخرج المُحتل من هناك.. ويشهد أبناء الأرض الطيبة قيام دولتهم التي صارت تحمل الهوية العربية بلا احتلال عثماني ولا انتداب بريطاني، وقد تم تأسيس جيش نظامي جديد وسُنت قوانين وأنظمة اقتصادية واجتماعية جديدة، فالخير حَطَّ أخيرًا عند عتبة الباب.

ويعود الرجال من جميع القرى والمدن إلى بيوتهم، البعض غابوا، والبعض أصيبوا، والبعض ما زالوا تحت حمى الرَّب بصحة لا بأس بها وذكريات وحكايات من هناك.

ويعود زوج " النقّية " إلى دارهِ وأهلهِ وأولادهِ ويفرح بابنهِ الجديد الجميل الذي كان صورة عن أمه والذي بلغ من العمر سبع سنين ولأول مرة يرى والده.

وبعودة رب الأسرة عاد الفرح والأمل من جديد، فلا حرب بعد اليوم فهناك قوة عسكرية نظامية تدافع عن كل المواطنين.
وبعودة الزوج تحمل "النقّية" مرة أخرى، وتُرزق العائلة بصبي آخر يحمل من الجمال ما لم يحظَ بهِ طفل، فكل من رآه يُعجب بجمالهِ الأخاذ..

وبعدهُ بسنتين ترزق العائلة بابنة أخرى ختمت مواليد العائلة تلك، إذ بعد ولادتها بأشهر فقط، يُصاب أبو الأولاد الصغار؛ زوج " النقّية "؛ بمرض في قلبهِ ينقلهُ سريعًا من الحياة إلى الموت تاركًا وراءهُ أمه وزوجتهُ وثلاثة أبناء وبنتين إحداهما مازالت رضيعة، ويترك كذلك الكثير من المال والحلال..

وتلحق بهِ بعد أشهر قليلة أمهُ بعد أن أتعبها الحزن مثلما أتعبتها سنين القلق والخوف أبان الحرب.
ولم يبقى في الدار الكبيرة غير "النقّية" التي تزداد جمالاً كلما ازداد الحزن في قلبها، والأبناء الذين أصبحوا كل همها، فتهم بإدارة ممتلكاتهم إلى أن يقفوا على أرجلهم كرجال يعرفون مالهم وما عليهم.

ولم تتخلى يومًا عن مسؤوليتها كـأم وأب ومديرة لمنزل وأملاك كثيرة، فقد كانت تعلِّم الأولاد ليصبحوا رجالاً تفتخر بهم، وتعلِّم البنتين لتُصبحا امرأتين تفخر بهما هي ويفتخر بهما من سيصبح من نصيبهما في المستقبل القريب.

ووسط أملها بأبنائها وإدارتها لشؤون البيت والحقول، وكذلك ممارسة موهبتها التي كانت تشفي كل مريض يطرق بابها بنعمة من الله... لم يكن الظالمون يكفون عن بخ السِّم عليها وعلى أبنائها، فكل يوم عِراك جديد بين أولاد الأقارب والغرباء مع أولادها، ولا وجود لرجل يدافع عنهم غيرها هي المرأة التي كانت لهم الأم والأب والخال والعم، وقد كان لها سلاحها الخاص وهو العصا الغليظة أو كما يسمونها بلغتهم "المَردي"، فلم تكن تتردد أن تحملها وتطارد بها كلِ من يؤذي أبنائها وحقولهم وأموالهم، فقد علمها شر العالم أن تتحدى وتقاوم كأي رجل مُحارب... وحتى بهذا حسدتها بعض نساء القرية.

ولم يُعرف تفسيرٌ للخير الدائم الذي كانت تحمله في قلبها للآخرين، فرغم كل شيء قررت أن تعمل الخير وبأبسط ما يكون وكيفما استطاعت، فكانت تُرضع بعض أطفال القرية مع رضيعتها الصغيرة والذين كان لا يمكن لأمهاتهم إرضاعهم، وربما كان طريق العطاء الذي قرَّرت أن تسلكهُ مفيدًا لها وهي لا تعرف.

وبعد مرور سنين قليلة ملأتها الأعمال على طول ساعات النهار والليل والتي أتعبت " النقّية " التي كان أملها أكبر من تعب الزرع والحصاد اللذين يعنيان استمرار الحياة لها وللأولاد الذين لم يشّدوا عودهم إلى الآن، وقبيل موعد الحصاد بقليل

ومع فرح المزارعين بالمحاصيل الكثيرة التي نبتت وملأت الأرض المترامية الأطراف، فجأة تَضرب حشرة غريبة عرفها أجداد هؤلاء الناس قبلهم بسنين طويلة ودونوا تفاصيلَ عنها في مخطوطاتهم البسيطة المحفوظة في أماكن عباداتهم وأسموها حشرة " السونة " هي تشبه الجراد بشكلها وتأتي بإعداد كبيرة من شرق وشمال الأرض لتضرب كافة المحاصيل الزراعية في كل تلك القرى، إذ هجمت بمجموعات كبيرة جدًا، ومع غياب مبيدات مكافحة الحشرات آنذاك كان الكل تحت رحمة الطبيعة وما يمكن أن تأتي به وأتت على أهل تلك الأرض في ذاك الزمان بأولى سنوات القحط.

وتمر أولى السنين، ولا بد للبيت من أن يستمر، فتقرر"النقّية" بعد استشارة أولادها أن تبيع قسمًا من الممتلكات لغرض المعيشة وكذلك لشراء بذور لزراعتها السنة القادمة.

إذًا سنة جديدة وزرعٌ جديد..
وقبيل الحصاد تقتل "السونة" ولمرة أخرى كافة المحاصيل..

ويستمر الحال لثلاث سنين متتالية تهجم " السونة " وتقتل الزرع الصغير وتأخذ معها غلال سنوات من التعب والصبر.. ونتيجة لعدم وجود الزرع الذي كان يأتيهم بالمواد الأولية لصناعة الخبز والقمح وأساسيات طعامهم وطعام مواشيهم أصاب الفقر والقحط كل أهالي القرية والقرى المحيطة بها الذين

باعوا أكثر ممتلكاتهم ليستمروا في الحياة في ظروف لم يروا أسوأ منها.

وكذلك كان حال "النقّية" وأولادها، فلم يبقَ من ممتلكاتهم سوى البيت الذي يسكنون فيهِ، وحقول قليلة وبعض رؤوس الماشية.

سنوات الرحيل

وبعد ما حصل، وخوفًا من سنين الجوع أن تستمر.. يقرِّر بعض الأقارب وسكان القرية الرحيل عن هذا المكان والبحث عن مصادر للعيش في أرضٍ أخرى، فالخسارة تكبر وتشتد على مرِّ السنين ولا أحد يعرف ما هو الآتي.. وتختار الأم "النقّية الذكاء" بحكمتها البسيطة أن ترحل وأولادها مع من سيرحلون إلى أرضٍ وسماءٍ وأجواءٍ ومحطاتٍ أخرى.
وفعلاً يشّدوا الرحال للسفر بعيدًا نحو الجنوب، فقد رحلوا من سهول الشمال الخضراء الباردة إلى حرِّ ورطوبة الجنوب، فهذه هي الحياة؛ لا بد أن تتغير، ولا بد أن تستمر.

رحلت "النقّية الذكاء" من مكان ولادتها إلى مكان تجهلهُ، لكن الأقرباء يقولون إن هنا في المكان الجديد الرزق وفير، فالكل سوف يعمل حسب ما يعرف.. وفعلاً عملت النقّية حالما وصلت كـ"مرضعة" لأطفال بعض الأُسَر الغنية، واستأجرت مع بعض الأقرباء الذين رحلوا معها بيتًا كبيرًا لتسكن كل عائلة فيه بغرفة واحدة ويتم تقسيم الإيجار على الكل، مع ممارسة حكمتها التي صار لها صدى أكثر في أنحاء الأرض الجديدة.

الهجرة من مكان أصولهم كان الخيار الأوحد والقرار الصائب وسط الخسائر التي طالتهم واستمرت لسنوات، ومازالت الأخبار تردهم من هناك عن أقاربهم وما يعانون من سنوات القحط التي وصلت إلى سبع سنين ونثرت الكثير منهم في أنحاء الأرض شمالاً وجنوبًا وفي الشرق والغرب.

وتظل "النقّية الذكاء" تمارس موهبتها بالصلاة وتقديم المساعدة للآخرين، ورغم الظروف الاقتصادية السيئة التي كانت تمر بها مع أولادها لم تفكر حتى بعد نصيحة المُقربين أن تبيع موهبتها للآخرين الذين هم بحاجة للشفاء، بل أحبت دائمًا أن تُشفي وتصلي مجانًا وشعارها في هذا كان "إن الله أعطاني مجانًا وأنا أعطي مجانًا"، والرزق سيأتي من باب آخر يفتحه الرَّبُ الكريم.

عُرف عنها إنها مؤمنة رغم كل ما حلَّ بها منذ أن بدأ وعيها يفهم ظروف الدنيا حولها، مؤمنة بالرب الخالق ومؤمنة بالمصير الذي وصلت إليه بحكمة الرب وبالقليل من الحكمة التي أنعَم عليها بها، ودروس الدنيا التي تلقتها.

وبما أنها الآن تعيش في مدينة كبيرة فلا بد من أن يتعلم الأولاد ليصبحوا مثل أولاد الأغنياء الذين تتعلم من خبرات حياتهم أثناء عملها، فطموحها المستمر رغم بساطتهِ جعلها تختار دائمًا الأفضل في الحياة.. وفعلاً تُدخل الأولاد والبنتين إلى المدارس التي كانت أولى المدارس في ذلك البلد وأُسّست في المدن الكبيرة من قبل راهبات الأديرة، فكان الطلاب يتعلمون من الراهبات الحب، والإيمان، والمغفرة.. مثلما تعلموا العلوم البسيطة ولغات قد تساعد في المستقبل على المسير في مشوار الحياة.

كان كل أولادها ينتظرون أن يأخذوا الشهادة الأولية بعد دراسة سنوات قليلة ليُساعدوا أمهم ويكرموها... وبعد سنوات يقرر الولد الكبير أن يترك المدرسة بعد أن أصبح صبيًا، فهو الرجل الأول الآن والمُعين لأمه التي أتعبها العمل كمرضعة لسنوات طويلة، حتى يقال بأن ابنتها الصغرى كانت ترضع من ثدي أمها ولم تتركهُ يجف حتى عندما أصبحت صبية، لأن عمل الأم تطلب بأن يبقى الحليب يتدفق من ثدييها لتواصل طريق نضالها وتعطي مع حليبها بركتها لكل طفل صارت لهُ أمًّا في الرضاعة.

وفعلاً يتجه ابنها الأكبر للعمل في محل صغير يملكهُ أحد الأقرباء الذين جاءوا معهم من سهول الجزيرة في الشمال.. ومن هذا الوقت تبدأ الأم "النقّية" بتنفس نسيم الراحة بعد أن كبر الأولاد وبدأوا يعينونها على حمل أثقال الحياة.

وتترك البنت الكبرى أيضًا الدراسة لتتفرغ لمساعدة أمها في أمور البيت بعد أن أُضيفت أعمالٌ جديدة، فقد قررت " النقّية الذكاء" بحكمتها وبما تعرف أن تفتح بابَ رزقٍ آخر للمعيشة.. وقد كان عمل ابنها الكبير يتطلب بيع بعض الأطعمة البسيطة، لذلك تقرر هي أن تقوم مع ابنتها الكبيرة بشراء المواد البسيطة وتصنيع الأطعمة تلك والتي لم يعرفها أهل الجنوب إلا عندما جاءهم الشماليون ونقلوا لهم جزءًا من تراثهم العربي الممزوج بالتراث العثماني؛ ومنهُ طبعًا الأطعمة.

وينجح العمل، والناس كل يومٍ تنتظر الجديد من هذهِ الأطعمة الشهية التي تُقدم إليهم على أيدي سكان سهول الجزيرة في الشمال، ومن هذه الأطعمة أنواعٌ تسمى "الكُبب" ومفردها "كُبة" والتي اشتهرت حتى الآن في القليل من الدول العربية التي خُلطت حضارتها مع حضارتي الأتراك والفرس.

إذًا بدأ عمل آخر مُتعب،لكنهُ جميلٌ ويُدر ربحًا أكثر من الرضاعة فتترك أخيرًا "النقّية" صدرها ليجف بعد سنوات طويلة من إرضاع أطفالها وأطفال الآخرين لدرجة تعجب لها الكثيرون.

وتستمر بهذا العمل لسنوات أيضًا رغم زواج ابنتها الكبرى من أحد الأقارب المقيمين في الجنوب أيضًا وتركها تعمل وحدها في تصنيع تلك المأكولات التي تتطلب العمل طيلة ساعات النهار والسهر ليلاً لطبخها حتى تكون مُعدة صباحًا ليذهب بها الابن الكبير إلى المحل الذي يعمل فيه ليبيعها هناك.

ازداد العمل وازدادت الطلبات عليهِ فهو مُشهي، وقليلون فقط من يبرعون في إعدادهِ.. وفي ذلك الوقت يُقرِّر الابن الثاني العمل بعد أن أكمل سنوات الدراسة الأولية وتعلمه اللغة الإنكليزية والتي نادرًا ما كان يعرفها سكان ذلك المكان، وفعلاً يبدأ بالعمل في إحدى الشركات الأجنبية المتواجدة في الجنوب وتفرح "النقّية الذكاء" فقد مَضت سنوات التعب وتحقق الحلم وها هم الأولاد يعملون ويساعدونها ويساعدون أنفسهم، لقد

كبروا واشتّد عودهم، أصبحوا رجالاً قادرين على حماية أنفسهم وحماية الأم التي كافحت وضحت لسنوات طويلة بحلوها وبالمُرِّ الذي كان لهُ النصيب الأكبر في مشوارها.

وتمر الشهور مُسرعة، ويتخرج الابن الأصغر المحبوب من قِبل أمهِ فهي تتذكر كلما رأتهُ أخاه؛ ابنها الأول من زوجها الأول المتوفى، والذي أُخذ منها وهي مُكرهة على ذلك ولم تسمع عنهُ إلا خبر واحد منذ سنين جاءها بهِ بعض الأقرباء وبشّروها أن ابنها بخير وقد أكمل تعليمهُ الجامعي ويعمل مع بعض الأقرباء في مهنة التجارة هناك في " العالم الجديد " الدولة التي رحل إليها مع أهله لأبيه. ولا أمل أن يأتي ليرى والدتهُ فهو منُشغل ولا يعرفها أصلاً؛ لأنه تركها وهو رضيع بعد.. لكن " النقّية الذكاء" وضعت كل ذكرياتها وحبها للابن الأول الغائب في قلبها لتعطيها لابنها الأصغر ولسبب بسيط هو أنهما كانا متشابهين لحد كبير، بل إنهما كانا كالتوأم، ولطالما أطلقت عليه صفة شبيه ولدي الغائب.

ولحُبها الكبير لهذا الابن؛ تقرِّر أن تُعطيه بعض مُدخراتها ليعمل كشريك مع أخيه الأكبر في مشروع قرَّرا أن يعملا به سويًا لأنه قضى سنوات عمره الأولى في الجيش ولم يعمل ولم يدخر أموال تؤهله ليبدأ حياة جديدة كأخويه..

فيعملان سويةً مُساعدًا كل منهما الآخر، ولأن الصغير درس اللغة الإنكليزية وأتقنها أثناء دراستهِ الأولية، لذلك تَعلَّم وعَرفَ كيف يتعامل مع الأجانب الوافدين والمقيمين في ذلك المكان معهم.. والابن الكبير أصبح مُلمًا بعالم الأعمال وكيفية التعامل مع الناس وصار لديه مدخرات ممكن أن تنفعه لتُدفع كرأس مال جيد لمشروع صغير، بعد أن عمل لسنين مع أقاربه وصار ذا خبرة، فلابد الآن من مشروع عائلي خاص يدِّر الربح على الكل ليقف البيت من جديد على أُسس متينة.. ولترتاح الأم "النقّية" بعد سنوات التعب الشاقة.. لكنها كانت قد اعتادت على العمل حتى ولو بالتفكير فيه لتطويرهِ ومشاركة الأبناء بالقرارات وإعطائهم من خبرتها في الحياة ما يساعدهم على اتخاذ القرارات التي تُنجِّح تجارتهم..

وفعلاً، وبعد شهور قليلة يتغير وضع العائلة إلى الأحسن.. فيقرِّر الابن الأوسط الزواج من إحدى القريبات بعد إلحاح الأم ليتزوج أولادها الذين أصبحوا رجالاً بسرعة.. ولأن الابن الكبير لا يرغب الآن بالزواج إذ أخذهُ عالم العمل بعيدًا وأخذت أيضًا ملذات الدنيا نصيبًا معهُ. فيتزوج الابن الأوسط ويُرزق ببنت جميلة في أول أشهر زواجهِ، ويليها بعد ذلك صبيان.. وبولادة الأخير تُصاب الأم كنة "النقّية" بمرض "حُمى النفاس"، وتبقى أيام قليلة تحت وطأة المرض ليأخذها الموت فجأة، وأولادها الثلاثة ما زالوا صغارًا جدًا وبحاجة إلى رعاية أمهم..

فتبدأ رحلة أخرى لـ" النقّية الذكاء "، فقد أصبحت الآن الجدة والأم لهؤلاء الأيتام الثلاثة، بعد رحيل أمهم المُبكر وعمل أبيهم لساعات طويلة في النهار والليل، وقد اقتضى عملهُ بعد هذهِ الأحداث بفترة قليلة أن يذهب مع الشركة التي يعمل بها إلى العاصمة، فهناك أصبح المكان الملائم لمثل أعمالهم بعد أن لعبت الحرب العالمية الثانية مع بدايتها دورًا كبيرًا في انهيار اقتصاد بعض المدن والدول في كل العالم؛ وخاصة في بلدهم ومدينتهم التي أُعتبرت آنذاك ميناءً لدخول القوات العسكرية من الهند وأوربا، وأيضًا ما خلفته سلبيات الحرب مع طول سنواتها في زيادة فقر أهل البلاد التي كان فقراء سكانها كثيرين، وزاد الجوع وأيام القحط التي طالت وعُرفت بـ" أيام الخبز الأسود " بسبب نقص المواد الأولية لصناعة الخبز وخلطه بمواد غريبة وصعوبة الحصول عليه رغم كل ذلك.

إذًا ترك الابن الأوسط أمهُ "النقّية" وأخويه الاثنين اللذين انشغلا بتجارتهما، وأبناءه الثلاثة الذين قرَّرت أن تربيهم الجدّة "النقّية"، بعد أن استأجر لهم بيتًا خاصًا بالعائلة فقط بعد أن تركوا البيت المشترك.. فقد ازداد دخله بعد أن كسب خبرة سنوات في عمله وتمت ترقيته لعدة مرات فقد عُرف بأمانته وحبه لعمله وإخلاصه فيه، كذلك تحسنت تجارة أخويه الآخرين بعد أن صارت مدينتهم مأوى للجيوش القادمة إلى البلاد التي

هيمنت عليها القوات البريطانية مرة أخرى مع وجود النظام الملكي الرسمي للبلاد. وكانت "النقّية" تقضي الأوقات العصيبة تلك بالدعاء والصلاة كلما رأت الأطفال والكبار ينهارون أمام عصف القحط والجوع وقنابل الحرب.

وفي تلك الأثناء استنفرت القوات المُحتلة كل أبناء البلد من الشباب من جديد إلى الحرب، فقد تقرر دستوريًا أن ينضم كل شاب قادر على حمل السلاح إلى الخدمة العسكرية الإلزامية مع القوات البريطانية لقتال أوروبا في خارج البلاد، والثوار في شمال ووسط وجنوب البلاد الذين كثروا بسبب عودة الاحتلال مع وجود حكومة رسمية ترضخ دائمًا لمتطلبات المُحتلين مسلمة إليهم كل البلاد؛ بكل ما فيها من خيرات.

ومن ضمن هؤلاء الشباب كان الابن الأصغر لـ"النقّية" فقد عاد إلى أجواء الجيش والأسلحة والعنف فصار يرتحل في بقاع الوطن جنوبًا وشمالاً وشرقًا وغربًا.. وأثناء تواجدهِ قريبًا من قريتهم الشمالية كان يذهب ليتفقد ممتلكاتهم هناك والتي ائتمنوها لدى قريب لهم ليزرعها ويحصدها ويعطيهم نصيبهم ويأخذ نصيبه... وفي إحدى الزيارات؛ رأى صبية جميلة ابنة لأحد أقربائه، وأُعجب بها وأحبها بفترة قليلة، فاتخذها زوجةً لهُ ونقلها معهُ بعد ذلك من الشمال إلى الجنوب حيث بيت العائلة الذي كان في ذاك الزمان هو الهوية والوطن للأبناء والأحفاد،

وبزواجه صارت أيام أمه سعيدة لأنها أحبته حُبًّا خاصًا وتعلقت به كثيرًا وكان مميزًا عندها أكثر من كل إخوته وأخواته.

وفي أول شهور زواجه رُزق ببنت جميلة حملت السرور لكل من في البيت الذي غاب عنه بكاء رضيع صغير منذ سنوات.. لكن الموت خطفها بسرعة بلا أسباب ظاهرة. وبعدها رُزق ببنت أخرى.. وماتت أيضًا بنفس العمر وبلا أسباب أيضًا، فعمَّ الحزن من جديد أركان البيت الصغير، ولكن فرح انتهاء الحرب العالمية الثانية وعودة الرجال وعودة الازدهار إلى البلاد أعطي لأفراد البيت الصغير كما لأفراد الوطن الكبير أملاً جديدًا بالآتي.

وفي ذلك الحين قرَّر الابن الكبير الزواج أخيرًا من إحدى قريبات أمهِ وقد كانت فتاة صغيرة ويتيمة من عمر مبكر ومن عائلة فقيرة الحال وقد كانت الفتاة المناسبة لتعتني بحماتها "النقّية الذكاء" وأولاد شقيق زوجها الذين أُخذَ الموت أمهم باكرًا؛ مع زوجة الابن الأصغر طبعًا.. وربما لحسن حظ هؤلاء الأطفال لم تُرزق الكنة الجديدة بأطفال ولسنوات طويلة، وربما كانت أيضًا حكمة الرحمن سببًا بهذا.. ومع ذلك فقد أحاطت الكنة أولاد أخي زوجها بكل محبة وكأنهم أولادها.

وبعد سنتين تزوج الابن الأوسط مرة ثانية؛ من إحدى بنات أعمامِ والدهِ المُقيمة مع أبيها المريض في العاصمة حيث يعمل. وأهل تلك الفتاة كانوا يسكنون أيضًا في نفس القرية في الشمال

وجاءوا إلى العاصمة منذ سنوات بعد أن ساءت الأحوال الاقتصادية واشتدت نيران الحرب العالمية الثانية هناك وأشتدَ مرض والدتها التي أُصيبت بمرض عضال منذ سنوات فكان لابد من المجيء إلى العاصمة لعمل عمليات ساهمت في موتها سريعًا.. ولم يفكروا بالعودة مرة ثانية إلى موطنهم وقريتهم الأصلية بسبب مَرض الأب أيضًا وعدم وجود مستشفيات في القرى القريبة منهم ولا حتى في المدينة القريبة من قريتهم، فنصحهن الأقارب هي وأخواتها الثلاثة أن يستقررن في العاصمة، ففي العاصمة يوجد الكثير من المستشفيات، كذلك يوجد أطباء وأدوية.. فتركن ما يملكن من بيت وممتلكات وحقول وكل شيء بيد أولاد أعمامهم لأنهن بنات ولا أخ يرعاهم، وفي عُرف القرى تلك البنت لابد أن يرعى مصالحها رجل في حالة غياب الأب والأخ.

تركن كل ما يملكن وهاجرن إلى عاصمة بلدهن التي لم يسمعن عنها ألا قبل أن يجيئن إليها بأيام قليلة.. وربما كان مَرض والدها سببًا ليراها قريبها الذي قرَّر أن يتزوج بها؛ فهي الفتاة المُناسبة لهُ، وأدرك الشاب لُطف وحب وطاعة المرأة التي اختارها منذ أول أيام اللقاء.. وخاصة بعد أن قبلت بتربية أولادهِ بل وقامت هي بإرسال خبر إلى حماتها تدعوها فيه إلى الحضور لمباركة الزواج ولتجلب معها أولاد زوجها لتبدأ هي بتربيتهم، فقد أصبحت أمهم من الآن.

وجاء أهل الزوج من الجنوب؛ أمه وأخواه وزوجتيهما وأولاده الثلاثة لحضور مراسم الزواج، وامضوا أيام الفرح سوية بعد غياب واشتياق.. وبعد انتهاء أيام العرس عادت "النقّية الذكاء" مع ولديها الآخرين إلى الجنوب، فقد قررت أن تستقر معهم هناك. وبقي الابن الأوسط مع زوجتهِ القريبة اللطيفة والتي كان لها ثلاثة أولاد تعتني بهم مع الزوج ومنذ الليلة الأولى لزواجها وقد كانت رغم هذا بغاية الفرح، إذ حظيت برجل وسيم جميل الوجه وطيب القلب وتتمنى كل امرأة أن تكون من نصيبهِ.. كذلك فإن لهُ نصيبًا من الرزق ما يستطيع بهِ أن يكون صاحب عقارات كثيرة في وقت قصير، لكنه لم يحبذ فكرة الامتلاك، كان يعيش وأهله برغد وكانت مُتع الدنيا وصرف الأموال عليها عندهُ أهم بكثير من فكرة تجميد الأموال في الأشياء. فالعائلة لا تحتاج لشيء، فلهم بيت استأجروه حديثًا، ولهُ عملهُ المُستقر ويملك كذلك سيارة؛ ذلك الاختراع الذي وصل قبل سنوات قليلة ولا يملكهُ إلا القليلون وهو من بينهم.. ونتيجة للحرمان الذي عاشهُ وهو صغير يحاول دومًا أن يوفر لعائلتهِ كل ما يحتاجون لهُ كي لا يشعروا يومًا بالحرمان.

وبعد مضي شهور الزواج الأولى تصبح الزوجة حاملاً... وفي أثناء تلك الشهور تقرر "النقّية الذكاء " زيارة ابنها الذي أستقر في العاصمة مع عائلتهِ لتبشرهُ بولادة ابن لأخيه الأصغر بعد

مرور سنوات على زواجهِ من المرأة التي أحب والتي أنجبت لهُ خلالها عدة أطفال لكنهم كانوا يموتون بعد أشهر قليلة من الولادة ولم يعرف سببًا لذلك لكنها لم تيأس يومًا بل كانت تطلب عند كل صلاة من ربها أن يعطيها طفلاً ويهب له الحياة.. ونذرت نذرًا لتنفذه على طول العمر.. فأعطاها الكريم رغبة قلبها ووفت بنذرها حتى أخر أيام عمرها.

وأثناء وجود الجدة "النقّية" في العاصمة رُزق ابنها الأوسط بابنة جميلة علامات السعادة على وجهها وهي مصدر بركة لأنها البنت الأولى من الزوجة الجديدة..

ووسط هذه الأفراح تُرزق زوجة الابن الأكبر بأول ولد لها بعد سنوات الانتظار الطويلة والتي لم تتخلى فيها عن الصلاة والطلب من الله أن يرزقها بأبناء كباقي نساء العالم.

وفرحت الأم الكبيرة "النقّية الذكاء" وتعجبت من حكمة ربها في ذلك ففي أشهر قليلة رُزق أبناؤها الثلاثة بأول أولادهم.. الابن الصغير رُزق بابن وجههُ منير كنورِ الصبح، والابن الأوسط رُزق ببنت حَملت السعادة إلى عائلتها، والابن الكبير رُزق بأول أولادهِ بعد انتظار وصبر.

وتوالت الأحداث في دنياهم الصغيرة التي كلما مرَّت سنة ازدادت توسعًا بالنسبة لهم وهم الذين منذ سنوات قليلة لم يكونوا يعرفوا سوى حدود قريتهم الصغيرة والقليل من القرى

المجاورة، ها قد أصبحوا اليوم يتنقلون من مدينة كبيرة إلى أخرى، بل صاروا أصدقاء القطارات التي دخلت البلد حديثًا وكانت وسيلة التنقل الوحيدة لمسافات السفر البعيدة قبل أن تفتح الطرق وتُعبد وتنتشر السيارات في كل مكان.

سنوات الانفصال

وتستمر الحكاية...

وبعد أن تصبح "النقّية الذكاء" جدة للكثير من الأحفاد الموزعين بين العاصمة والجنوب.. يُصاب ابنها الأصغر الذي منحتهُ بنقائها كل الحب.. يُصاب بـ" أ ورام" في أصابع قدميه الاثنتين ينتج عنها آلامًا رهيبة لا يمكن لإنسان أن يتحمل مثلها، ولم تفلح حكمة الأم والطب البسيط الذي ورثتهُ من والدها الحكيم والذي أورثتهُ أيضًا لهذا الابن.. فقرر على أثر هذا هو وزوجتهِ أن يذهبا إلى الأطباء ليعرض عليهم تلك المنطقة المُصابة لديهِ.. وبعد الذهاب إلى عدد من الأطباء؛ ولبساطة العلم آنذاك؛ لم يفلح أيٌّ من هؤلاء الأطباء في إيجاد سبب لهذهِ الأورام، وبدأوا بوصف الأدوية لتسكين موضع الألم فقط.

ونتيجة لتناولهِ للكثير من الأدوية خَفَت الأورام قليلاً، لكن أطرافه بدأت تتيبس وصار الشعور بها قليلاً جدًا، وبدأت ملامح وجود شيء خطير فيها تبرز بشكل واضح؛ خاصة بعد أن تغير لون الجلد من الأبيض إلى الأسود...

وصار السوء يزداد يومًا بعد آخر.. فلم يكن أمامه خيار سوى مراسلة أخيه المقيم في العاصمة للتشاور في حلّ هذه المشكلة، فتلقى أخوه الأكبر منهُ هذا الخبر فنصحهُ بأن يأتي إلى العاصمة حيث الأطباء لديهم من العلم ما قد ينفع بهِ في هذهِ الحال... وفعلاً شّد الرحال مع زوجتهِ تاركًا أولاده بعد أن أصبحوا ثلاثة

مع جدتهم "النقّية الذكاء" ليستقر عدة أشهر في العاصمة، وفي بيت أخيهِ الذي هو بيتهُ بالطبع حسب التقليد الذي توارثوه.
وللمرة الثانية لم ينفعهُ الأطباء شيئًا هناك، لذلك قرَّر العودة إلى بيتهِ في الجنوب..

وبعد أشهر من العذاب والتجارب لهذه الوصفة وتلك، يزور البلد طبيب قادم من قلب أوروبا ليقيم لفترة من الوقت خصصها لشفاء المرضى الذين كانوا كثيرين بسبب توالي الحروب.. فيقرر السفر من جديد إلى العاصمة لزيارة ذاك الطبيب فقد سَمَع عنهُ من بعض المقربين بأنهُ طبيب بارع، وقد شفى الكثيرين من الجيران والأقارب لذلك قرَّر الذهاب إليهِ فربما يُعيد إليه بعض الذي بدأ يفقدهُ.

وبعد أن يراه الطبيب ويَسمع منهُ عن حالتهِ يكتشف الطبيب بأن هذا الإنسان مُصاب بمرض "انسداد أو تصلب الشرايين" التي توصل الدم عن طريق دورتهِ إلى كافة أجزاء الجسم؛ ومنها طبعًا أصابع القدمين، مما أدى إلى تيبس الأصابع.. وقد كان هذا نتيجة لحالة روماتيزم الأطراف التي أُصيب بها أثناء فترة وجوده في الجيش التي تطلبت العيش في الجبل والثلج أيامًا وفي البحر والرطوبة أيامًا أكثر.

ومثلما لابد من التضحية من أجل الوطن للخروج بنتيجة إيجابية فلابد أيضًا من نتائج سلبية تظهر بعد سنوات من انتهاء سنين النضال.

ويقرر الطبيب بعد استيعابهِ لهذهِ الحالة أن يقوم بـ "بتر" كل الأعضاء المصابة، لأنه لا يوجد حلٌ آخر غير هذا، خاصة بعد أن بدأت الأصابع تتيبس وتسقط لوحدها مثلما يسقط الورق الأحمر من الشجر في فصل الخريف.

وقرَّر الطبيب بعد البتر أن يقوم بتجربة، عبارة عن حقن مادة في الجسم لتوقف هذا الانسداد في الشرايين، إذ كانت علامات انسدادات جديدة تظهر كل حين.. وبعد أيام من عذاب العمليات يُفاجأ الطبيب بأن جرعة الدواء التي حقنها للمريض أعطت نتيجة عكسية.. فقد أدت هذه الحقنة إلى حصول اعوجاج في القدم اليمنى للمريض واستدارة القدم إلى الخلف مما أدى إلى بترها بقرار طبي.. فندم الطبيب على ما فعلهُ كـ"تجربة" في ظرف لا مكان للتجارب وللندم فيهِ، فقد ازدادت حالة المريض سوءًا.. وكتعويض عن ما فعلهُ قرَّر أن يأخذ هذا الإنسان الذي زادهُ عوقًا إلى بلدهِ في أوروبا لوضع ساق اصطناعية لهُ وتصليح ما يمكن إصلاحه من أخطاء.. لكن الشاب رفض السفر مع الطبيب لان العمليات الكثيرة أتعبتهُ وبدأ الحزن يأخذ من صحتهِ ومن جسدِه الذي أصبح هزيلاً جدًا بعد أن كان بأشد

قوتهِ.. فعرض الطبيب تعويضًا آخر للمريض وهو بأن يعطي لهُ ولعائلتهِ بعض المئات من الدنانير علها تعوضهُ عن الساق التي خسرها والتي ستجعلهُ يلزم البيت لبقية العمر، فربما ستقدم هذهِ الدنانير بعض المساعدة للعائلة التي فقدت بلمحة بَصَر قوتها المتجسدة بالرجل الذي يُعيلها.

وتمر السنون.. وتكبر العائلة التي لا مُعيل لها سوى المشروع الأول مع الأخ الكبير وعم الأولاد والذي يزورهم بين الحين والآخر للاطمئنان على أخيهِ الصغير وأمهِ " النقّية" وليعطي لهُ الأرباح الضئيلة التي بالكاد تكفي لإطعام العائلة.

ويستمر العناء.. ويستمر المرض لسنوات.. وكل عدة أشهر يقوم الأطباء بعملية جديدة لبتر الجزء الذي تيبس في رجلي المريض أو يديهِ التي سرعان ما طالها المرض أيضًا.. ونتيجة لتَعب وهَمّ المرض والذي تطلب السفر من الجنوب حيث البيت والأسرة إلى العاصمة حيث الأطباء، قرَّر الابن الأصغر الاستقرار في العاصمة مع عائلتهِ وأمهِ " النقّية " التي أتعب قلبها رؤية ابنها الأصغر المُدلل تحت رحمة هذا المرض الذي لم يعطهم أحدٌ أملاً بالشفاء منه.

ولذلك يقرر الابن المريض تقسيم حصتهُ من المال مع أخيه الكبير الذي قرَّر الاستقرار جنوبًا مع زوجتهِ وأبنائهِ الذين صاروا يزدادون بالعدد واحد كل سنة.

وتأتي العائلة مع الأم " النقّية " إلى العاصمة التي لا يعرفون فيها أحد سوى ابنها الأوسط وبعض الأقرباء والأطباء طبعًا الذين يشرفون على حالة الابن المريض. وتقرر "النقّية الذكاء" أن يسكن ولداها الأوسط والصغير مع عوائلهما في بيت واحد محاولة منها بجمع شمل أسرتها في كل مكان تكون فيه.. وفعلاً تمَّ استئجار بيت كبير يكفي لسكن العائلتين معًا فقد صار لكل من العائلتين عدد كبير من الأبناء، حتى الأخ المريض كانت عائلتهُ تكبر بمرور السنين، فبرغم العوق المزمن الذي أصاب الرجل فهو لا زال رجلاً ويريد أن يكون له أبناء كُثر مثل باقي الرجال.. ومعُيل العائلتين يكون الابن الأوسط الذي لم يبخل على أولاده كما على أولاد أخيه بشيء احتاجوا إليه.

أما الأم الكبيرة " النقّية " فقد عُرفت واُشتهرت بسرعة في العاصمة كما في كل مكان ذهبت إليه من قبل، فهي صاحبة القلب الطيب والرحمة لكل المُحتاجين.. وما زالت إلى هذا الوقت تقدم موهبتها لكل من لهُ حاجة.. وما زالت أيضًا مستمرة بالصلاة والدعاء لأولادها وأحفادها بالرزق والصحة، بعد أن صارت الآن تجلس طوال اليوم في البيت وليس في لسانها إلا الحوار مع خالقها ورفع طلبات المُحتاجين إلى عطفهِ؛ حالها في هذا مثل حال أي أم شرقية الدماء أتعبها الزمن الذي لا يكف عن الأخذ مهما أعطى لهُ الإنسان.

ولأن متطلبات الحياة صارت كبيرة على الأخوين الذين صار أكثر أبنائهم في المدارس ولا إيراد للعائلتين اللتين كانتا كعائلة واحدة غير الراتب الشهري الذي يتقاضاه الأخ الأوسط والذي بالكاد يكفي لمتطلبات المعيشة.. يقرر الأخوان من جديد فتح مشروع صغير يدر النقود اللازمة لاستمرار الحياة... فيأخذ الأخ مُدخراتهِ ومُدخرات أخيه ويفتح محلاً تجاريًا في وسط العاصمة ِليكون لعائلة أخيه التي فَقَد مُعيلها القدرة على العمل وليكون لهم معاشًا ثابتًا يساعدهم لأن يستمروا بالحياة، وكذلك يكون لهُ ولعائلتهِ دخلاً إضافيًا.. ويقوم الأخ المريض بالإشراف على إدارة العمل وهو جالس على كرسيه المتحرك مع بعض المُساعدين.

وفعلاً تتحسن أوضاع العائلتين بعد فتح هذا المشروع ويعيشون حياة كريمة... لكن بعد مرور السنوات وبسبب ظروف البلد الاقتصادية التي كانت تسوء، ولعدم قدرة الأخوين صاحبي المال على متابعة إدارتهما لمحلهما التجاري الصغير بسبب عمل الأخ الأوسط في شركة، ومَرض الأخ الآخر والذي كان يُجبرهُ على ملازمة البيت بصورة مستمرة... يتعرض هذا المشروع إلى خسارات مستمرة، فيقرران بيعه لاسترداد رأس المال الذي هُم بأمسِّ الحاجة لهُ.

وتبدأ رحلة أخرى من الصراع مع الحياة.. فلا مُعيل لعائلة الأخ المريض سوى أخيه الأوسط الذي لديه أيضًا عائلة كبيرة.. عندها تأخذ زوجة المريض قرارًا بالعمل بما تعرف.. وتعمل فعلاً في بيتها بعد أن قام أحد الأقارب الذي يعمل طباخًا في فندق كبير بالاتفاق مع مدير الفندق على أن يتم تحويل كل ما يحتاج من الملابس والشراشف إلى غسيل يدوي وكيّ؛ إلى هذه المرأة لتقوم بغسلهِ وكيِّهِ في بيتها - إذ لم تكن الغسالات الكهربائية موجودة بعد - وذلك مقابل أجور جيدة تكفي ربما لتُعيل العائلة.. وتتحمل زوجة الأخ الأوسط؛ التي وُصفت دومًا بطيبتها ولطفها؛ أعباء تربية أولاد الأخ المريض مع أولادها والذين كانوا بنفس الأعمار تقريبًا... أما أولاد الابن الأوسط من زوجتهِ الأولى صاروا الآن قريبين من عمر الشباب واتجهوا إلى طريق العمل ليعيلوا أنفسهم ويُساعدوا عائلتهم أيضًا، وصارت لهم آراؤهم التي على الجميع احترامها بعد أن اختلطوا ببعض الأقارب والأصدقاء في الجلسات التي كان يحضرها أبوهم والتي وصفت بجلسات الأنس، حيث الأكل والشرب والملذات، فكانت حياتهم العمل طوال ساعات النهار، والفرفشة في ساعات العصر وإلى انتصاف الليل، ثم العودة إلى البيت بوضع يدعو إلى الاشمئزاز. ومن هنا بدأت المشاكل بين عائلتي الأخوين الذين يسكنون بدار واحدة، فالعم المريض لا يرضى بهذا الحال؛ إذ هو لا يكف عن الصلاة ربما بسبب مرضهِ أو فقر حالهِ، أما أخوه وولداه

الكبيران من الزوجة الأولى المتوفية؛ فلا يكفون عن البذخ وصرف كل ما يأتيهم على الملذات وسلوك طريق اللهو.

ونتيجة للوضع الذي صار يتكرر كثيرًا، وبعد نشوب عدة شجارات بينهما قرَّر الأخوان الانفصال عن بعضهما وعاد كل منهما إلى استئجار غرف في بيت مشترك مع عوائل أخرى.. وهذا كان الوضع السائد في ذلك المكان آنذاك.

ورغم أن الأخ الأوسط لديهِ من المال ما يكفي لشراء دار، ورغم إلحاح زوجتهِ المستمر على هذا الموضوع، إلا أنهُ كان يراضيها دومًا ويطيب خاطرها بأن يشتري لها ولبناته بعض القطع الذهبية وتبذير ما كان يجنيه من عملهِ لشراء مستلزمات معيشة للعائلة أكثر بكثير مما تحتاج لهُ عدة عوائل، فقد كان رجلاً مُسرفًا بطبعهِ وبحسب مفهومه للحياة فالإنسان الكريم لابد أن يعمل ويصرف كل مدخراتهِ على العائلة سواء احتاجت أو لم تحتاج.. وكذلك لا بد من اللهو؛ فالحياة تُعاش لمرة واحدة فقط.

أما الأخ الأصغر المريض فقد اضطر أن يُدخِل إلى دنيا العمل ابنه الكبير والذي لم يبلغ من العمر بعد سوى تسع سنوات فقط بعد أن وافق الولد الصغير رغبةً منه بتوفير مستلزمات البيت والعائلة ومساعدة الأم التي تُعيل هذه العائلة، مع مساعدة بسيطة من الأخ الأوسط الذي لم يتوقف عن مُساعدة أخيه حتى بعد الانفصال من السكن معًا. وقد عمل هذا الولد الصغير كعامل

على ماكينة في إحدى المعامل الخاصة بصناعة القناني الزجاجية.. ولأن حجم الماكينة التي كان يعمل عليها أكبر وأعلى منهُ بكثير فقد كان يقف عليها مستعينًا بوضع قطعة خشبية تحت قدميه ليزداد طولاً عدة سنتيمترات وبذلك يصل إلى مستوى الماكينة فيستطيع الاستمرار بالعمل.

ورغم عمل الأم والولد والمساعدة الخارجية من الأخ ومن بعض الأقارب، إلا أن متطلبات المعيشة أكبر من الدخل لأن العائلة أصبحت كبيرة فهي مكونة الآن من الجدة "النقّية الذكاء" وابنها المريض وزوجتهِ وثلاثة أولاد وبنتين... لذلك أراد الأخ المريض من أخيه الأوسط أن يساعده بمبلغ كبير خاصة وأنهُ يعمل بشركة كبيرة ومدخولاته كثيرة في ذلك الزمن إضافة إلى عمل ولديه الشابين، لكن الرفض كان الفصل بينهما...

ولأول مرة وربما نتيجة لضغوطات الحياة والقلق المستمر من الآتي يقرر الأخ الأصغر المريض أن يرفع دعوى في المحكمة لمطالبة أخيه بإعالته قانونيًا لأن المساعدة التي كان أخوه يقدمها له لم تكن كافية ولا ثابتة، لكن القانون إذا حكم يجبر على أن تكون المساعدة ثابتة ومستمرة وربما كافية.

وعندها تبدأ سنوات الأحقاد بين العائلتين.. فعذر الأخ الأوسط ربّ العائلة الأولى هو أنه ليس مُجبرًا على مساعدتهم بالقانون وهو عن طيب خاطر يعطي بعض المال لأخيه المريض وعائلتهِ

الذين تزداد نفقاتهم ويطالبون بزيادة المساعدة مع كل سنة تمر وقرار الدعوى أبقى الوضع على ما هو عليه..

أما عن أمهما "النقّية الذكاء" فليس لديها سوى الصلاة لأبنائها بعد أن لم ينفع الكلام معهما وحتى لم يتجنبا الكلام الذي تصدرهُ ألسنة الناس التي لم يكن لها سوى تبادل الكلام عن هذا وذاك.

وفي إحدى السنوات تغادر البلد الشركة التي يعمل فيها الأخ الأوسط متوجهة إلى بلادها التي أتت منها، وتعطي مكافأة نهاية الخدمة للموظفين الذين عملوا فيها سنوات طويلة.. فيأخذ الأخ الأوسط ما لديه من مدخرات ليشتري بها سيارة أجرة يعمل فيها بعد أن فقد عملهُ.. وعندها يصبح مدخولهُ أكبر لذلك يطالب الأخ المريض وعائلتهِ بمبلغ أكبر ولا حيلة لدى أخيه إلا مساعدته والشفقة عليه وعلى حالتهِ الجسدية والنفسية التي تزداد سوءًا كل يوم، فقد أصبح شديد الغضب ويثور لأي سبب والكل مُقدر لوضعهِ بعد أن فَقَدَ حتى الآن ساقيه الاثنتين، إلا أن عائلة الأخ الأوسط ازدادت أيضًا ولها مصاريفها ومتطلباتها الكثيرة إضافة إلى مصاريف لهو ربّ الأسرة وولديهِ الكبيرين والتي تأخذ الكثير مما يجنيهِ في اليوم الواحد.

ومنذ ذلك الوقت ابتدأت القطيعة بين الأخوين الشقيقين، فالأوسط يُساعد على قدر ما يستطيع، والصغير المريض يطالب بمُعيل لعائلة كاملة.. وأمهما "النقّية الذكاء" لا حول لها ولا قوة

فما زرعتهُ من حب وتضحية في نفوس أولادها كل السنوات التي مَضت تحول إلى نزاع وصراع وكراهية بسبب المَرض والفُقر اللذين كانا الصفة المشتركة لأغلب العوائل في ذلك الزمان.

ووسط صراع الكبار وخلافاتهم لا يستطيع الصغار؛ أي أحفاد "النقّية الذكاء" إلا إتباع كراهية الكبار.. وبعد أن كانوا أولاد عم بل وكأنهم إخوة يلعبون ويمرحون في بيت واحد أو شارع واحد أصبحوا اليوم وكأنهم غرباء بسبب ما لقنهُ الكبار في آذانهم.

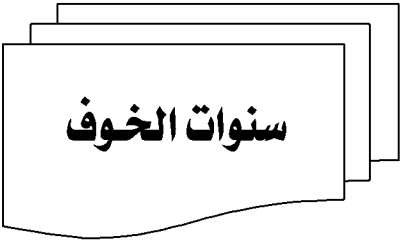
سنوات الخوف

وتبدأ الآن قصة كل عائلة بعد أن انفصل الأخوان وانقطعت مشورة أحدهما للآخر..

ففي عائلة الأخ الأصغر استمرت معاناة الفقر وتضحية الأم وولدها الكبير الذي كان يدرس ويعمل بنفس الوقت.. أما شقيقه الذي يليه مباشرة فلم يحب العمل ولا الدراسة فقد أصبح مصاحبًا لمن هم أكبر سنًا منهُ وتمضية كل النهار في الشارع للعب فقط وعندما يأتي إلى البيت يتلقى الضرب والعقاب من الأب المريض الذي لم يُعجبهُ هذا الحال.. أما بقية الأشقاء والشقيقات الصغار فقد قضوا أوقاتهم في المدارس أو في البيت الذي ما زالت أمهم الكبيرة الجدة "النقّية الذكاء" تعتني بهم مع أبيهم المريض المُقعد والأم التي تعمل أكثر مما ترى أولادها.

أما عائلة الأخ الأوسط فقد بدأت فيها سنوات الصراع، فقد كان الإخوة الثلاثة الكبار من زوجة الأب الأولى المتوفية.. كانوا مثيرين للمشاكل ويسلكون أي طريق تؤدي إلى زرع الخلاف، وكانوا يُضمرون الحقد كذلك على إخوتهم من الزوجة الثانية للأب والتي ربتهم وكأنها الأم الفعلية لهم وبشهادة كل الأقارب والجيران الذين كانوا ينادوها بكنية الابن الأكبر الذي هو بالطبع ليس ابنها لكنها تقبلت الحال عن طيب خاطر رغم أن الله رزقها بولد أصبح الآن كبيرًا، إلا أنها أبت إلا أن تُكنى باسم ابن زوجها.. هذا الابن الذي لم يكف عن الشكوى والتذمر وزرع

الفتنة هنا وهناك حتى على أبيه وزوجة أبيه وإخوته أشقائهِ والآخرين.
وقد كانت شقيقتهم البنت رائعة الجمال وفاتنة لدرجة حَسدها فيها كل من رآها، وقد كان أخوها الأصغر منها سنًا لا يكف عن ضربها لأي سبب وفي كل مرة تقف زوجة الأب مدُافعة عن المظلوم، فتتلقى المسكينة حصتها من الضرب أيضًا على يد أولاد زوجها وكأنها لم تكن يومًا الأم التي انتشلتهم من اليُتم الذي وضعتهم فيه أقدار الحياة.

وفي إحدى السنوات وعندما كانت هذه البنت الجميلة تذهب لزيارة أقربائهم المجاورين لهم أعجب بها أحد الشبان أثناء رؤيتهُ لها وهي في الطريق، وقد كان لذويه نفوذ اجتماعي وسياسي كبير في الدولة آنذاك.. وبقى يترصد خطواتها لشهور، وبعدها قرَّر أن يخطبها... وفعلاً ذهب لخطبتها، وحالما سمع أخوها المتذمر حتى انهال عليها ضربًا أدَّى إلى إصابتها بجروح بليغة وكل هذا كان بسبب أن هذا الشاب المُتقدم كان من دين آخر غير دينها..

ومن وقتها بدأت البنت تتحين الفرص للهرب من البيت والزواج من ذاك الشاب والعيش معهُ علَّهُ يكون لها الأب بدل أبيها الحاضر الغائب والذي لا يفعل شيئًا تجاه تسلط ولدهِ الكبير وضربهِ المستمر لزوجة أبيه وكل إخوته وأخواتهِ.. ويكون لها

الأخ الحامي الأمين الذي لم تجدهُ يومًا في أشقائها الذين لا يعرفون سوى أن يأخذوا فقط، يأخذوا الخدمة والراحة ويعطوا بعض الدنانير القليلة والكثير من الضرب والإهانات لكل من في البيت خاصة الأخوات الأصغر منهم سنًا.. فقد كان الأخ الكبير يتحول إلى شخصية ظالمة مجرد أن يصل إلى البيت فيبدأ بضرب إخوته وأمهم لا لسبب سوى الضرب فقط حتى يقال إنهُ كان يأتي فيجد أخواتهِ البنات نائمات فيضربهن إذا رأى أن إحداهن غير مغطاة الساق حتى لو أنها ما زالت طفلة بعد.

وبما أن الظلم لا يأتي إلا بظلمٍ أكبر فقد تفاجأ الجميع بهروب الابنة الصبية في أحد الأيام التي أتى فيها أخوها المتذمر وأصبح يتذمر على طعام الغداء ويضربها هي وزوجة أبيه وإخوته الصغار كالمعتاد.. وذهبت إلى المكان الذي يعمل فيه ذاك الشاب الذي أحبها كثيرًا وقرَّر بأن لا يتزوج من أي امرأة إذا لم تكن هي من نصيبهِ.

وبدأت كل العائلة والأقارب رحلة البحث عن الفتاة التي عجزوا عن أن يجدوها عند أي أحد من الأقارب أو الجيران، عندها تأكدت العائلة من أن البنت هربت من البيت.

وبعد مرور عدة أشهر عادت الفتاة إلى البيت لزيارة زوجة أبيها التي أحبتها كثيرًا وإخوتها الصغار الذين اشتاقت إليهم، وجلبت لهم الكثير من الهدايا، وبعد الجلوس معهم لبضع

ساعات أخبرتهم أنها تزوجت من ذاك الشاب الذي تقدم لخطبتها سابقًا وأنها تعيش معه أحلى أيامها فهو لها كل ما تعنيه كلمة وجود رجل في الحياة. ثم أنهت زيارتها بتوديعها لهم وأخبرتهم أنها ستسافر مع زوجها الذي أحبها إلى المنتهى، ستسافر إلى إحدى الدول الكبيرة في أوروبا لأن وظيفة زوجها اقتضت بأن يكونا في ذلك البلد.

وما إن سمع شقيقها الكبير خبر وجودها في بيت ذلك الرجل الذي تزوجت منهُ حتى قرَّر أن يقتلها، لكنهُ خاف من العقوبة التي ستلحق بهِ قانونًا فقام للفور بتحريض شقيقهُ الصغير الذي لم يبلغ سن الرشد بعد للذهاب لقتل شقيقتهما التي جلبت لهم ولكل العائلة العار منذ أشهر هروبها ووضعتهم كحبوب تطحنها الرحايا المتجسدة في ألسنة وعيون الأقارب والجيران عندما هربت من البيت وتزوجت من رجل غريب وليس من دينها حسب المفاهيم والأعراف التي نظمت الحياة الاجتماعية آنذاك.

في البداية لم يوافق الأخ الأصغر على فكرة القتل إلا بعد أيام من الضرب والإهانات من شقيقه الذي يكبرهُ والذي أجبرهُ على قتل أختهِ وذلك بإقناعه بأن لن يتم الحكم عليهِ كونهُ صغير السن والقانون سيعتبرهُ غير راشد لفعلهِ.

وفعلاً بدأ التخطيط لزيارة أختهما بحجة توديعها وأنهما سامحاها على فعلتها وعلى ما مضى.. وتقتنع الأخت فعلاً وتثق

لأشقائها وتقنع زوجها بطيبتهما وهو الذي طالما راودته الشكوك من أن نيتهما ليست طيبة.. تتوالى بعد هذا زيارتهما لها مرة ومرتين حتى تطمئن أن نيتهما حسنة؛ وكذلك ليطلعا ويعرفا وضع البيت هناك خاصة مع وجود الخدم معها حتى أثناء غياب زوجها.

وفي الزيارة الأخيرة يذهب الأخوان سويةً في الوقت المحدد الذي يخرج فيه زوجها للذهاب لعملهِ.. ويدخلان البيت كالمعتاد في زيارة قصيرة لأختهما التي ستسافر بعد أيام قليلة.. فيبدأ الأخ الكبير بتجسيد ما خطط له مسبقًا فيبقى هو في الصالة في الطابق الأول خوفًا من أن يأتي زوجها صدفة وكذلك حتى لا يُعتبر شريكًا في جريمة القتل.. أما الأخ الثاني فيصعد إلى الطابق الثاني حيث غرفة النوم ليجد أختهُ نائمة بأمان في فراشها فيأخذ زجاجة عطر كبيرة ويضربها بشدة على رأس أختهِ النائمة.. فتنهض البنت بسرعة وتقف على رجليها متوسلة بأخيها بأن لا يقتلها فهي لم تفعل شيئًا سوى أنها أنقذت نفسها من الضرب والإهانة كل يوم.. ووسط توسلات البنت المسكينة يُصاب الأخ بالخوف لأنهُ كان يظن ويتوقع أنها ستموت حالاً إذا ضربها بشدَّة بأي شيء يراه أمامهُ فكانت زجاجة العطر هذا الشيء، ألا أنها كانت تتمتع بصحة جيدة ساعدتها لتنهض وتقف وهي مُصابة، وهذا ما جعلهُ يشعر

بالخوف وتوقع بأنها ستنادي على أحد الخدم لإنقاذها فأخرج في الحال خنجر قديم ملأه الصدأ كان قد أحضرهُ معهُ لكنهُ لم يشأ أن يذبحها بهِ خوفًا من رؤية دمها وهو يسيل لكنهُ لما اضطر أخرجهُ وأشبع أختهُ المسكينة طعنات في كل جسدها ثم قطع رقبتها بالخنجر فاصلاً رأسها عن جسدها حتى يتأكد أنها لن تنهض مرة أخرى.

وبعد أن أتمَّ فعلته نزل مسُرعا مُبشرًا أخاه الكبير بأنهُ أتم المهمة بنجاح.. فقال لهُ أخوه الآن سوف تذهب إلى مركز الشرطة لتخبرهم أنك قتلتها غاسلاً العار الذي ألحقته بنا.

وفعلاً ذهب الأخ القاتل بعد هذا إلى أقرب مركز الشرطة وغرز الخنجر في الورق أمام ضابط الشرطة وقال لهُ: " لقد قتلتها.. قتلتها وغسلت العار"، فتعجب الضابط لما يرى وقال لهُ من قتلت وأي عار غسلت؟.. فقال لهُ يا حضرة الضابط لقد قتلت أختي.. فتعجب الضابط من جرأة هذا القاتل وقرر المباشرة بسماع ما يروي..
إذن سَلَّم نفسهُ للقضاء واعترف بجرمهِ ظنًا منهُ بأن لن تلحق بهِ سوى عقوبة بسيطة ربما الحبس لعدة أشهر فقط.

وفي أثناء هذا، ذهب الأخ الكبير الرأس المدبر إلى البيت مُبشرًا أباه والعائلة البسيطة بأن قصة العار انتهت والأخت قُتلت، فصُدم كل من في البيت لسماع هذا.. وبعد ساعات فقط حضَرت

قوة من الشرطة لتلقي القبض على الأب وعلى الأخ الكبير لاتهامهما بالتحريض على ارتكاب الجريمة وذلك لأنهما الأكبر سنًا في البيت.

وبعد يوم واحد أُطلق سراح الأب لاعترافه بعدم علمهِ بما جرى ولأنهُ مُعيل لأسرة تضم الآن أربعة أولاد وثلاث بنات، ما بقي لهُ من زوجتهِ الثانية بعد أن ضاع بلحظة واحدة أولادهُ الثلاثة من زوجتهِ الأولى.

كل ما حدث تمَّ بأيام قليلة بمقاييس الزمان لكنها كبيرة بمقاييس القسوة والعنف وكأن الأحداث لمن تلقاها من الأقرباء والجيران قصة تروى عبر المذياع أو فيلم أبيض وأسود يُعرض أمامهم مثل الأفلام التي كانوا يرونها على شاشات السينما التي دخلت حديثًا إلى ثقافة أهل ذاك المكان.. لكن الأحداث كانت فيلمًا حقيقًا ساخنًا وبالألوان.

وبعد ذلك بأيام أُحيلت أوراق القضية إلى المحكمة المختصة بعد سماع شهادات الشهود "الحرَّاس والخدم" الذين شهدوا الجريمة في بيت الضحية وسماع ما رواه زوجها مما سمعهُ من زوجتهِ عن ما عاشتهُ من ظلم وعذاب على يد أشقائها وخاصة شقيقها الكبير ومحاولة الزوج إقناع القضاء بإنزال أقصى العقوبات على الذين حرموه من الزوجة التي اختارها شريكة لحياتهِ إلى الأبد.

بعد ذلك أصبحت القضية بأيدي القضاء والكل في انتظار إصدار الحكم بعد أيام، وقد كان الانتظار والترقب من قِبل كل الأقارب والجيران الذين لم يعرفوا إلا كل خير عن هذهِ العائلة والتي عُرفت دومًا بكرمها ونبل أخلاق رب وربة الأسرة؛ وحتى الأخوين الذين هم الآن تحت رحمة يد القضاء.

ويأتي يوم المحاكمة فيقرر القاضي الحُكم بالإعدام للأخ الكبير المُحرض الأول على ارتكاب الجريمة وكذلك الإعدام شنقًا للأخ القاتل والمُنفذ للجريمة، لأن القضاء اعتبرها جريمة متكاملة ومع سبق الإصرار والترصد.. وفي يوم المحاكمة وقبل نطق قرار الحكم يظهر القاضي عجبهُ من أن يقوم أخوان من عائلة كريمة مسالمة عُرفت بإيوائها لكل غريب وتقديم مُساعدتها لكل مُحتاج أن يكون ولداها بهذه القسوة التي جعلتهما يقتلان أختهما الشقيقة فقط من أجل إرضاء رغباتهما، وكأن رجولتهما توقفت فقط على فعل هذا الجرم بحق أقرب الناس إليهما.

ولم تتوقف الجريمة بعقوبة السجن لمن ارتكبها فقط بل شملت كل العائلة، فالأب تَرك العمل لأنهُ أصيب بمرض في عينهِ نتيجة بكائهِ المستمر على فقدان أولادهِ الثلاثة بيوم واحد مما أوقفه عن العمل لأنهُ لم يعد يرى الأشياء بشكل واضح. والآن، ليس من معيل للعائلة الكبيرة.. وقد نصح الكثير من المقربين الأب بالطعن بحكم المحكمة واستئناف الحكم مرة أخرى، لكن اليأس

والحزن أفقداه التركيز كما أفقداه القوة على المضي في الحياة.. فقررت زوجة الأب؛ ولأنها لم تكن تشعر إلا بأنها الأم لهؤلاء الذين خسروا شقيقتهم وحياتهم؛ قررت أن تبيع كل ما تملكهُ هي وبناتها من حلي ذهبية وتعطي المبلغ لأحد المحامين ليستأنف قرار الحكم هذا من جديد.. وتنشغل زوجة الأب بأمور هذين الشابين وتترك أولادها الصغار وقد كان أصغرهم رضيعًا بعد في البيت مع الأختين الأكبر سنًا اللتين أصبحتا بحيرة من أمرهما فواحدة تنهمك بإعداد الطعام للأطفال وتباشر أعمال البيت والأخرى تذهب عند هذه الجارة وتلك وهي تحمل أخاها الرضيع كلما جاع لترضعهُ إحدى الجارات.

وبعد الجلسات والمشاورات صدر حكم الاستئناف وأمر القاضي بالحكم بالسجن المؤبد للأخ القاتل والسجن لعشرين سنة للآخر الذي أتهم بالتحريض على ارتكاب الجريمة.

وبما أن القرار الخطأ يؤدي إلى خطأ أكبر فقد كان قرار قتل الأخوين لأختهما هو ذبح لكل العائلة، فقد جلس الأب في البيت تحت وطأة الأفكار التي تأخذهُ بعيدًا هنا وهناك والمرض الذي أصاب عينيه والذي سيتطلب إجراء عملية جراحية بعد أشهر، والأولاد الصغار في المدارس، والأم التي صرفت كل ما لديها للمحامي الذي أنقذ رأسي الشابين الخاطئين من حبل الإعدام.

وبدأت سنوات حصاد الشرّ الذي تحول في نفس هذين الشابين إلى حقد على كل ما حولهما ومن حولهما وخاصة على الأب وزوجته التي احتضنتهما حتى في السجن فقد كانت تترك صغارها وتذهب إليهما كلما حان موعد زيارتهما.. فموعد الزيارة هذا لم تكن تتأخر عليهِ لأنهما أجبراها على زيارتهما وإحضار ما لذ وطاب وبما يكفي لأسبوع إلى أن يحين موعد الزيارة الآخر..

وتستمر طلباتهما بالتزايد ويبدأ التقصير على الأولاد في البيت، فقد باعت الأم كل ما تملك وصرفت كل ما ادخرتهُ لسنوات واضطر الأب إلى بيع السيارة التي لم يعد يستطيع العمل عليها بسبب مرضهُ.. ولا مُعيل للعائلة سواه وولديه الذين قطعا رأس أختهما وقطعا معهُ الرزق والخير الذي طالما تنعمت به كل العائلة إلى أن وصل وضع العائلة إلى حال يرثى لهُ فلا مدبر لشؤونها الآن ولا حتى زارهم أحد أو تفقدهم من إخوة الأب.. وقد وصل بهم الحال إلى أكل الخبز فقط، وإذا يبس الخبز تقوم الأم المسكينة بتفتيت القطع وإضافة السكر إليها ليأكلهُ الأولاد الصغار إذا جاعوا.

فتفكر عند ذلك الأم بإيجاد حل مناسب وسط تلك الأزمة المادية الكبيرة التي حَلَّت على العائلة، ولأن الأولاد الذكور ما زالوا صغارًا يكون الحل الذي تقرر الأم تنفيذهُ هو أن تعمل البنت

الكبرى والتي كانت تحمل علامات السعادة والفرح على تقاسيم وجهها رغم كل الأزمات التي مروا بها، أن تعمل في أحد معامل الخياطة، فقد علمتها أمها " الخياطة " منذ أن كانت صغيرة وقد أفادتها هذه الهواية التي أصبحت بغضون أشهر مهنة تدر عليهم المال الذي يستطيعون بواسطته العيش كعائلة كريمة من جديد وكذلك يساهم بمُساعدة الأخوين القاتلين وهما في السجن، واللذين كانا في صراعٍ دائم مُتهمًا أحدهما الآخر بأنهُ هو السبب بوجوده في السجن وكأن الجرم الذي فعلاه لا يستحق العقاب.. واستمرت صراعاتهم كل يوم تقريبًا لدرجة يضطر فيها بقية السجناء وحراس السجن إلى التدخل لفض النزاعات.

وفي أيام السجن الطويلة كبرت في نفس كل منهما مشاعر الحقد الممزوجة بالحزن والكراهية على الأب الذي تزوج بأخرى وأنجبت لهُ الكثير من الأبناء فأصبح يُدلل الصغار ويحبهم أكثر حسب ما تفسره لهما أفكارهما الخاطئة ومشاعرهما المريضة والتي زادتها مرضًا سنوات الحبس داخل أسوار السجن، ولأن كل إنسان منا يرى الأمور من الزاوية التي تخصهُ فقط.. فإذا تغلبت مشاعر الأنانية والحقد فينا نحن البشر الضعفاء نبدأ عندها بقطع الحقوق التي تعطيها الحياة لكل إنسان ونشكو ونتذمر حتى لو كنا بأسعد حال وربما تصل بنا كراهية أنفسنا والآخرين إلى قتل وبتر معنى الحياة الجميلة لأي إنسان حتى لو كان قريبًا لنا ونبرر ذلك بمبررات نُصدقها نحن

فقط.. فقصة الحقد هذه هي أول قصة عرفها تاريخ البشر "قابيل وهابيل" والحقد الذي أوصل إلى القتل والعقوبة والانفصال عن النفس وعن الآخر والابتعاد عن الرب الإله.

وتمر السنوات... وتسمع العائلة خبر سفر زوج البنت الضحية وقرارهُ بالابتعاد عن كل شيء أحبهُ عندما فقد زوجتهِ التي أحبها والتي قرَّر بأن لا يتزوج من غيرها طول العمر.

وبعد استقرار العائلة ماديًا نتيجة لعمل البنت الكبيرة ذات الأربعة عشر ربيعًا، والذي تطلب العمل ساعات كثيرة في النهار والعودة إلى البيت مُنهكة القوى لا تستطيع سوى النوم لتستقبل نهارًا مُتعبًا آخر وأملها الوحيد هو الاستمرار بهذا العمل الذي يعيل أهلها وإخوتها الصغار.. فيتقدم أثناء هذا لخطبتها أحد الرجال الذي سمع عن العائلة من أختهِ الجارة القريبة لهم.. لكنها ترفضهُ لأنها إذا تزوجت لا يوجد بعد من يعمل ليُعيل العائلة، عندها تقرر الأم أن تزوجهُ ابنتها الثانية التي لم تبلغ من العمر سوى اثنتا عشرة سنة لأن العبء أصبح ثقيلاً والعريس لا يعوض، فلديهِ مهنة مهمة ومحل تجاري يملكهُ ورصيد في البنك.. فتتزوج البنت الثانية وتسكن في بيت قريب من بيت أهلها لأنها صغيرة بعد ولا تعرف حتى التسوق والطبخ.. ولسوء الحظ لا ترزق هذه البنت بأطفال حتى بعد مرور سنوات على زواجها بسبب مرض كان يعاني منهُ زوجها.

وتستمر أحداث ذلك الزمان وتتوالى... فبعد سنوات خمسة قضاها الأخوان القاتلان في السجن أصدرت الدولة قرارًا بالعفو العام عن السجناء غير السياسيين والذين أمضوا مدة محددة ويشهد لهم بحسن السلوك والطاعة لكافة أوامر السجن.. وهذا القرار جاء بمناسبة مرور ذكرى إحدى المناسبات الوطنية في تلك البلاد.

وبعد الإفراج عن الأخوين والعودة إلى دار العائلة التي انتقلت إلى منطقة أخرى بعد حادثة القتل والسجن هربًا من عيون الناس وكلامهم الجارح.. يقوم الأب بالتوسط عند من يعرفهم لإيجاد عمل لولديهِ، وفعلاً يعمل الكبير في إحدى المؤسسات الحكومية ويعمل الآخر في أحد المحال الخاصة بالمهنة التي تعلمها وهو صغير.. فالعائلة تحتاج لهما الآن بعد سنوات الفقر التي اجتاحت العائلة بسبب فعلتهم المُشينة.

لقد استقرا بأعمال جيدة ومناسبة، لكنهما لم يستقرا كأفراد داخل عائلة في بيت واحد فقد كثرت الشجارات كل يوم بينهما وإذا تدخل الأب أو زوجتهِ ينهالان عليهما بالشتائم والضرب.. وعلى الجميع؛ شاءوا أم أبوا، تقدير الحالة العصبية والعنيفة التي وصلا إليها فقد ربتهما سنوات السجن على القسوة والعناد ونسيا كل ما تعلماه من أخلاق وطيبة.

ولذلك فقد قرَّر الابن الكبير والذي تجاوز الآن الثلاثين سنة أن يترك البيت، فذهب إلى بيت عمهِ المريض المقعد ليستقر هناك.. وفعلاً كان هذا القرار مناسبًا لهُ وللعائلة التي تخلصت من شّرهِ ومن النفس المريضة التي ولدت وكبرت معهُ وزادتها الأفعال التي اختار فعلها مرضًا.

ويبقى الأخ الثاني مستمرًا بإعالة العائلة مع أختهِ التي ما زالت تعمل في مهنة الخياطة.. لكنه صار بعد سنوات السجن أكثر إدمانًا على شرب الخمر متحججًا بعبارة كان يرددها تقول: " إن الخمر تنسيني ما فعلتُ وما فعل بنا أخي الظالم أنا وأختي التي قتلتها بيدي"، وربما كان هذا المُبرر الوحيد لجعل العائلة تتحمل عقبات سكرهَ وإدمانهِ وإزعاجهِ المستمر لهم ولكل من حولهم من جيران.

ولكن دوام الحال من المحال.. فقد كانت حصة الهدوء الذي تمتعت بهِ العائلة لأيام معدودة فقط، فبدأت هجومات الابن الكبير إذ كان كل يوم تقريبًا يأتي من بيت عمهِ إلى بيت الأهل لافتعال المشاكل مع أخيه الشقيق وضرب زوجة الأب والأخوة وبدون أية أسباب مُقنعة.

وفي هذه الأثناء يبدأ الابن الكبير للعم المريض بالتدخل لفك النزاعات في بيت عمه.. ذلك الابن " صاحب الوجه المُنير " والذي كان إنسانا عمليًا منذ طفولتهِ وتعلم الطاعة والمساعدة

في البيت وخارجهِ وربَّى نفسهُ على الاتزان وعمل الرحمة لأجل الرحمة فقط.. ولذلك لم يعجبهُ حال ابن عمهُ وقد كان يأتي ليحاول تهدئة التوتر ومحاولة إعادة العلاقات التي بُترت بين عمهُ وأبيه المُقعد والتي لم تعود برغم كل المصائب التي حلت بالعائلتين.

وبعد زياراتهِ المتكررة إلى بيت عمهِ نشأ أعجاب متبادل بينهُ وبين الابنة الكبيرة التي تعيل البيت.. فقد كانت بالنسبة لهُ البنت التي حلم أن يرتبط بها قبل أن يراها مثلما رأتهُ هي في أحلامها دون أن تراه نتيجة للقطيعة التي نشأت بين عائلتي أبويهما الشقيقين وهما بعد صغيران، لقد تعلما أن يكونا رحيمين رغم كل المشاكل التي عاشوها والتي يعيشونها بسبب أخيها الكبير والتي أدت إلى أن يقرر الأخ الثاني الرحيل بعيدًا عن أي مكان يتواجد فيه شقيقه الذي أتعبهُ وورطهُ بمشكلات عديدة وصلت إلى القتل وبتر أجمل لحظات حياة العائلة التي كانت سعيدة. فقد أصبح الآن أكثر نضجًا وبدأ يقدر كمية الحزن التي تسبب بها أخوه للعائلة حتى صار لا يمكنه رؤية هذا الأخ فهو بالنسبة لهُ أصبح يعني "الشيطان" بعينهِ.. فأتجه جنوبًا إلى بيت العم الأكبر الذي استقر هناك مع عائلتهِ التي أصبحت كبيرة جدًا، ليستقر فعلاً ويعمل بمهنتهِ التي أعتاد عليها في واحد من المحلات التي يملكها أحد رفاق عمهِ.. ويتخلص بهذا من شبح أخيه الذي يطاردهُ كل يوم... استقر جنوبًا حاملاً معهُ كل العُقد النفسية التي

تَحملها نتيجة لإتباعهِ مكرهًا لأفكار شقيقهُ الكبير وقتل شقيقتهُ وسنوات السجن والإدمان على شرب الخمر وكل المأساة التي خلفتها السنوات السابقة حملها في عقلهِ وقلبه فكانت الحياة عندهُ العمل نهارًا والإدمان ليلاً والنوم ساعات قليلة جدًا، مع القلق والشعور بالذنب الذي كان واضحًا جدًا على كل تصرفاتهِ خاصة أثناء ساعات النوم التي قضاها في الصراخ والبكاء في الأحلام والحقيقة. وقرَّر منذ ذلك الوقت بأن لا يوقع نفسهُ بعد ذلك بأي إشكال من قريب أو بعيد فقد كان يعمل ليكسب ما يكفي لطعامهِ وشرابهِ وسكنهِ الذي كان بشقة صغيرة يتشارك فيها مع أحد العاملين معهُ بعد أن ترك بيت عمهُ.. وفي داخلهِ رغبة بعدم الزواج إلى الأبد؛ خاصةً بعد فشلهِ بالزواج ممن أحب؛ من بنت خالهِ شقيق أمهُ المتوفية والذي رفضهُ لإدمانهِ على الخمر، فقرَّر عدم الزواج وتحمل مسؤولية نفسهُ فقط لطول أيام العمر.

وأثناء كل هذهِ الأحداث المريرة... كانت "النقّية الذكاء" والتي ما زالت جميلة جدًا رغم قرب عمرها من سنواتهِ المئة.. لا تفوت لحظة من عمرها إلا وملأتها بالصلاة لأولادها وأحفادها وكل من يطرق بابها طالبًا الشفاء، ولكل العالم، فقد أصبح العالم مُختلفًا بنظرها وملأه الحقد والخوف وفرقتهُ الأنانية ولا يحتاج إلا للصلاة وطلب الستر والأمان والرحمة من الله على ما ستأتي بهِ الأيام.

وبعد محاولات حفيدها الكبير من ابنها المُقعد بتصليح الأوضاع التي توترت منذ سنوات كثيرة بين أبيه وعمهُ الشقيق؛ لم يفلح إلا بامتلاك قلب ابنة عمهُ التي أحبتهُ كما أحبها واستمر الحب بينهما لثلاث سنوات.

ولأنهُ كان يعمل منذ طفولتهِ لإعالة عائلتهِ أيضًا لأنه كان الابن الأكبر بل الأب للجميع والصديق المخلص لأمهُ التي أتعبتها سنوات الجهاد.. فقد كان قادرًا على الزواج وفتح بيت فورًا خاصة بعد أن كبر وأكمل دراستهِ فتطور عملهُ ودخلهُ لذلك استطاع أن يوفر نقودًا أودعها لدى والدهُ أثناء سنين عملهُ الطويلة.. لكنهما أجَّلا أمر الزواج خوفًا من ردود أفعال أهلهما.. إلى أن حان الوقت وفاتح أمهُ وأباه برغبتهِ بالزواج من ابنة عمهُ الكبيرة التي أحبها وأحبتهُ خلال السنوات الماضية.. وبقلبهِ رغبة بأن هذا الزواج سيُصلح ما أفسدتهُ الأيام بين أبيه وعمهُ، لكن هذا الشاب أُصيب بخيبة أمل كبيرة عندما اجتاحت والدهُ نوبة غضب شديدة حالما فاتحهُ بموضوع الزواج من ابنة عمهِ، فحاول أن يمنع الزواج بكل الطرق التي فكَّر بها، وما كان من والدة الشاب سوى الصمت وإقناع ابنها بإطاعة أبيه والذي لا يجوز لهُ أن يشعر بالغضب الذي كان يصاحبهُ يوميًا ولأي سبب من الأسباب، ربما لأنهُ يشعر بالضعف والعجز أمام نفسهُ وأمام زوجتهُ وأولاده.. لكن الشاب أصَرَّ أن يتزوج من هذه الفتاة فهي

المناسبة لهُ فعلاً ومن كل النواحي التي فكَّر بها، إضافة طبعًا لحبهُ الكبير لها.

وبعد محاولات إقناع كثيرة؛ اضطرت الجدة "النقّية الذكاء" أن تتدخل لإقناع ابنها المُقعد بضرورة أن يتزوج ابنه من ابنة عمهِ التي اختارها؛ إذ لا علاقة لهما بكل ما حصل بينهُ وبين أخيه، ولا داعي أن يصل الخلاف ويمتد لسنوات أخرى.

لكن هذه المرة خرج الأب المُقعد بفكرة جديدة، فقد حاول إقناع ابنه بأن ابنة عمهُ هذهِ والتي تصغرهُ بأشهر كثيرة - قد رَضعت معهُ - لأنهم كانوا يسكنون في بيت واحد هو وأبوها عندما كان الأولاد صغارًا، وكلما جاع أحد الأطفال تأخذهُ أم الآخر وترضعهُ. ولذلك لا يصح الزواج ممن رضعت وإياه. وهنا ثارت ثائرة أم الشاب بعد الصمت الطويل فقالت لزوجها المُقعد قف عند حدك لأن ما تقولهُ حرام عليك فهما لم يرضعا سوية أبدًا.. فقد كنا نحن في الجنوب وهم في العاصمة فكيف يصدق ما تقول ؟

ولم تستطيع حيل الأب المريض المُقعد إبعاد ابنه الشاب عن فكرة الارتباط فعلاً بابنة عمهِ، لذلك فكَّر بإقناع ابن شقيقهُ الذي حَرَّضَ أخاه على جريمة القتل والذي ترك بيت أبيه بعد فترة من خروجهِ من السجن وسَكن عندهم؛ أي في دار عمهُ، أقنعهُ بأن يتزوج من ابنته التي لا تزال بعمر أربع عشرة سنة والتي لم تنجح بالمدرسة ولا نجحت بأعمال المنزل حتى، فقرر الأخير أن

يتزوجها ويسكن مع أهلها في نفس البيت لأنهُ لم يكن يملك المال لإتمام الزواج، فقد كان يبذر كل ما يأتيه من عملهِ على السهر وإدمان الكحول كل ليلة.

سنوات العودة

وبعد الحصول على موافقات أهل الشابين لإتمام الزواج أراد الشاب المُحب أن تتم مراسيم زواج أولاد العم في ليلة واحدة وأن يتحمل هو عبء كل المصاريف لأنها الوسيلة الوحيدة ليفوز بابنة عمهُ التي أحبها.. وفعلاً تبدأ التحضيرات للزواج، وتبدأ معها مرة أخرى من جديد الأحقاد.

فكلما اشترت العروس المُحبة شيئًا من لوازم العرس اشتعلت نار الغيرة في نفس ابنة عمها العروس أيضًا.. وكلما اشترى لها خطيبها المُحب هدية أو قطعة ذهبية اشتدت غيرة الخطيبين الآخرين اللذان لم يقنعا بما لديهما ولا حاولا تطوير أنفسهما ولا كفًّا عن حسد أقرب الناس لهما.

وفي أثناء فترة الخطوبة يقوم هذا الخطيب المُحب باستئجار بيت كبير يكفي للعائلة التي ستكبر بزواجهَ وزواج إخوته في المستقبل، وغرس في حديقته أشجارًا متنوعة من تين وعنب وتوت وزيتون لتبقى على طول السنين والعقود شاهدًا على أعمالهِ التي عملها فقط لأجل الحب الكبير الذي حملهُ في قلبهِ طول سنوات العمر.

وفي أثناء ليالي الفرح لم يتفق أبوا العروسين الأشقاء على أي شيء إلا على بيع ما بقي من ممتلكاتهم في القرية التي جاءوا منها وتوزيع المال على ثلاث حصص لهما ولأخيهما الثالث في الجنوب.

وبعد انقضاء أيام العرس وسكن العروس المُحبة في دار عريسها وأهله تنال محبة جدتها "النقّية" التي لم تراها منذ سنوات طويلة والتي كانت تشبهها كثيرًا بالشكل وتحمل مبادئ التضحية والرحمة لأهلها ولبيتها الجديد وقد تعلمت منها الكثير من الحِكم والخبرات التي إفادتها واختصرت لها مسافة سنوات من التعلم في مدرسة الحياة.

ومع كل ما استجد من ظروف لم يتخلى الابن الشاب والمُحب عن مساعدة أهله فقد كان كالمعتاد يُسلم كل مدخولاتهِ حال استلامها بيد أبيه المُقعد، أما الزوجة العروس فلم تتخلى عن مساعدة أهلها أيضًا كما قررت أن تُساعد أهل زوجها بما تستطيع أن تقدمهُ من مرتبها ومن طاقتها فقد صارت لهم الأخت الكبيرة والمُربية لمن ما زالوا صغارًا؛ وحتى الخادمة في أمور البيت وإبداء المساعدة لحماتها في عملها، إضافة إلى إنها قررت أن تشتري ما تقدر عليهِ لتجهيز بيت المستقبل. فقد كانت تُخطط مع زوجها المُحب لأن يكون لهما بيت يملكانهُ هما فقط وبأسرع فرصة ممكنة وقد كانت تُعد لهذهِ الفكرة من خلال شراء أجهزة كهربائية وأثاث لبيت المستقبل من القليل الذي تدخرهُ من مرتبها رغم الكلام القاسي الذي كانت تسمعهُ من أهل زوجها كلما اشترت شيئًا جديدًا.

وفي غضون تسعة أشهر رُزقت ببنت ففرحت بها فرحة لم تعرفها طوال سنين عمرها وكانت لها ولزوجها الدمية التي تحلي الأيام.

أما أخت زوجها المتزوجة من أخيها المتذمر فقد رُزقت أيضًا ببنت وقد كانت تقضي ساعات أيامها بالتنقل بين بيوت الأقارب القريبة والكلام عن هذه المرأة وتلك فقد شغلت أيامها بالنميمة وافتعال الأزمات بين المقربين.. وبعد ذلك بتسعة أشهر فقط رُزقت بولد ثم بنت أخرى فلم تعرف شيئًا عن الحياة سوى الأكل والشرب والكلام عن الناس والحمل والولادة كل تسعة أشهر.. أما زوجها المتذمر فقد كان يأتي كل ليلة وهو لا يقوى على السير لشربهِ كمية كبيرة من الكحول ولم تكن توجد لغة تفاهم بينهُ وبينها ولا حتى مع أولاده الصغار، وقد كان يصرف كل ما يجمعهُ بيوم واحد حتى بعد أن فتح لهُ مطعمًا صغيرًا يعمل فيه عصرًا إضافة لعمله الوظيفي الصباحي، فقد كان يصرف كل دخل اليوم بنفس اليوم.. وبقي يسكن في دار عمهِ لسنوات، ثم انتقل منهُ بعد أن ضجر عمهُ المُقعد من أفعالهِ وكلام زوجتهِ الذي لا يجلب سوى المشاكل ليرحل إلى بيت والده، ولم تستطيع زوجتهُ التفاهم أيضًا مع زوجة أبيه فقد كانت سليطة اللسان وتجرح بكلامها حتى عمها وزوجته.. لذلك اضطر إلى أن يستأجر غرفة في بيت صغير قريب من دار أهلها، ولم تتفاهم

أيضًا مع الأقارب الذين كانوا جيرانها.. فرحل إلى بيت آخر.. وهكذا استمر حال هذه العائلة بالتنقل من سكن إلى آخر كل سنة تقريبًا فلا وجود للغة تفاهم ولا لشراكة طيبة داخل بيتهم، لذلك لم يعرفوا التفاهم مع كل الناس حتى بعد أن بدأ الأولاد يكبرون.

وبقي رب هذه العائلة كعادتهِ التي لم يتخلى عنها يومًا وهي زرع الفتنة والقلق هنا وهناك خاصة عند أقرب الناس، وقد التقى أثناء جلسات الشباب الأقارب والذين كانوا يجتمعون في المقاهي عصرًا بزوج أختهِ الثانية غير الشقيقة والتي لم ترزق بأطفال رغم سنوات زواجها الطويلة بسبب مرض زوجها.. وبعد عدة لقاءات قام بالتحريض مرة أخرى بكلام وتلميحات إلى زوج أخته بأنها ستترك هذا الزوج المريض ربما لتبحث عن رجل آخر يُعطيها حقها بالأمومة التي لم تعرفها إلى الآن، لكن زوج أختهُ يأبى أن يصدق كلامه، وعندما يذهب لبيتهِ يشكو لزوجتهِ وينقل لها ما قال أخوها ولا حيلة للزوجة ألا أن تبكي وتؤكد للزوج أنها لم تفكر يومًا بهجرهِ أو تركهُ فقد تعودت أن تعيش حياتها معهُ منذ أن أخذها وهي صغيرة ونشلها من حياة الفقر وهي أحبتهُ فعلاً.. ألا أن الزوج كلما التقى أخاها شَّب القلق داخل قلبهِ، ولأنهُ كان ضعيف النفس وخائف من الآتي ومريض قرَّر بأن يتصدى لخوفهِ هذا ولكن بطرق سلبية.. فقد اشترى مسدسًا، وقام في أحد الأيام بقتل زوجتهُ، وبعد تأكدهِ من

موتها قتل نفسهُ.. ووُجد الاثنان بغرفة نومهما مقتولين، ولم يعرف أحد تفسيرًا لما حدث ولماذا قتل هذا الزوج الطيب زوجتهُ التي يمتدحها كل الأقارب والجيران والتي وُصفت دومًا بهدوئها وطيبتها وبساطتها.. سوى ابن عمها وزوج أختها المُحب الذي كان شاهدًا على كلام التحريض الذي يصدر من لسان أخيها الكبير الذي ظلمها كما ظلم أشقاءه من قبل.

وبذلك قضى الأخ الكبير على أختهِ الأخرى بالطريقة نفسها؛ لكن بوسيلة مختلفة.. ولم يترك مناسبة إلا وأشعل نيران الفتنة بين كل من عرفهم، وبالطبع ذهب وراءهُ من يشعر بالضعف فالطيور على أشكالها تقع.. ونتيجة لهذا يذهب الأبرياء الذين لا يطلبون غير بساطة العيش والهدوء ولا يطمحون إلا للسلام فيجدون مصيرهم على أيدي الجهلاء الذين لا يميزون بين الخير والشرّ في هذا العالم.

أما العائلة الثانية المُحبة لبعضها البعض والتي أصبحت الآن مكونة من الأب والأم وولد وبنتين إحداهما رضيعة بعد.. فقد اضطروا للسكن في ملحق صغير في بيت الأب المُقعد ودفع إيجار فرضهُ الأب على ابنه وزوجتهِ التي غيَّرت عملها حالما رأت فرصة أفضل للتغير.. وقد فرض الأب على ابنه بدل إيجار هذا متُحججًا بأن ابنه وزوجة ابنه الاثنان يعملان ولديهما عوائد مالية لا بأس بها والعائلة كبيرة وتحتاج للمزيد كلما كبر الأبناء.

وقد اضطرت الكنة ابنة عمهم المُحبة في أثناء هذهِ الحالة أن تعمل بمهنتها القديمة في خياطة ملابس النساء والأطفال في بيتها بعد العودة من العمل الصباحي لتُسرع بشراء بيت وتتخلص من مُضايقة عمها الذي لم يرحب بها منذ أن دخلت إلى بيتهِ وكأنها هي سبب خلافاتهِ مع شقيقهِ الذي هو أبوها بالطبع.. كذلك اشترى زوجها سيارة أجرة وبدأ يعمل عليها بعد العودة من ساعات عملهِ الطويلة أثناء النهار ويعطي نصف أجره لأهلهِ إضافة إلى الإيجار الذي يدفعهُ لأبيه.. وقرَّر أن تترك أمه العمل وتستريح من الإرهاق والجهد الذي صار واضحًا على صحتها التي بدأت تتدهور نتيجة للعمل المرهق الذي استمر لسنوات طوال.

وأثناء هذا كانت الجدة أم الكنة المُحبة تقوم بتربية أطفال ابنتها الصغار لأن جدتهم لأبيهم لم ترضى أن تُساعد في تربيتهم، فقد كانت مشغولة بتربية أولاد ابنها الثاني الذي تزوج منذ سنوات قليلة، والذي لم يكن يعمل إلا قليلاً ويمرح ويلهو بكل أيامهِ، مما اضطر زوجتهُ إلى العمل لتوفير القوت لأولادها.

وقد كانت الجدة الكبيرة " النقّية الذكاء " تُساعد في تربية كل الأحفاد ولا تفرق بين هذا وذاك، لكنها أحبت جدًا حفيدتها الكنة المُحبة وتضحيتها لعائلتها التي كانت تشبه إلى حدٍ ما تضحيتها هي، ولم تتخلى عن إبداء المشورة لجعل حالة البيت أفضل، فقد

كانت مصدر بركة في البيت ولم يشعر بهذا إلا حفيدها وزوجتهُ المُحبان واللذان لم يتخلا عن مراعاة جدتهما "النقّية الذكاء" ولم تكف هي عن الصلاة والدعاء لهما.. حتى أن يومًا ما أصيب حفيدها المُحب بحمى شديدة استمرت لأيام، فما كان من زوجتهِ ألا أن طلبت من جدتها أن تساعدهما وتدعو لهُ بالشفاء، فما كان من الجدة "النقّية" إلا أن تنهض وتحضن حفيدها وترجهُ بقوة وهي تتلو الصلوات التي كانت سرها الخاص مع ربها مما جعلهُ يصيح من الألم.. وبعد ساعات ذهبت عنهُ الحمى.. فتعجب الجميع من القوة الجبارة التي تحملها هذه المرأة التي تجاوزت عمر المئة عام والتي حملت وهزَّت شاب مثلهُ قوي العضلات، لكنها طالما قالت: إن هذه القوة ليست مني، بل إني أستمدها من الله المنعم الذي أعطاني كل هذه النِعم.

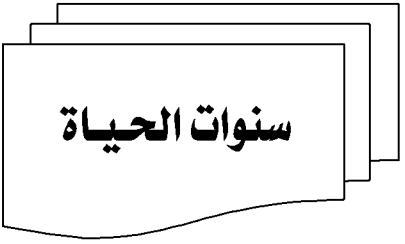
سنوات الحيـاة

وبعد سنوات الفقر الذي ساد طويلاً... تحصل فجأة تغيرات سياسية واقتصادية كبيرة في البلد وتتطور الأعمال لكل الأفراد.. فقد ولّت سنوات الجهل والفقر التي استمرت طويلاً، وأتى زمن النهضة بكل مجالات الحياة.. فأممت الشركات الكبيرة التي تدر الربح على الدولة ومن ثم على الشعب؛ وخاصة شركات النفط الخام والغاز وبقية المعادن التي استطاعت أن تغني البلد في غضون سنوات قليلة، وأصبحت العائلات تتمتع بالرخاء المادي شيئًا فشيئًا.. فدخل الفرح كل البيوت الفقيرة التي عانت لسنوات طويلة جدًا.

وأثناء هذا... قام الزوجان المُحبان بتغير عملهما إلى أعمال أفضل بكثير، بل وعملا معًا في مؤسسة كبيرة.

وشملت الأفراح كل أبناء الشعب الصغير والكبير حتى الجدة "النقّية الذكاء " التي كانت تفرح لفرح أبناء الشعب وفرح أولادها وأحفادها..

وفي أثناء هذه الأيام... جاءوا إليها بصبي في سنتهِ الأخيرة للدراسة قبل الدخول للجامعة والذي حدثت لهُ حالة عصبية كلما اجتاحته تجعلهُ يقع أرضًا ويصرع ثم يُغمى عليهِ، ولم يَفلح الأطباء بمعالجتهِ، وقد سَمعت أمهُ من أحد أقربائها عن هذهِ المرأة "النقّية الذكاء" التي تستطيع أن تُشفي من يتقدم لطلب مُساعدتها.. وفعلاً تأتي الأم إليها بصحبة ولدها المريض لتطلب

لهُ الشفاء، عندها تأخذ "النقّية" الصبي وتضعهُ على ساقيها وتتلو بعض الصلوات في قلبها دون أن يسمعها أحد ولا أن يعرف ماذا تصلي وهي مُمسكة برأس الصبي أمام عيون جميع من في البيت.. بعد ذلك تعيدهُ إلى أمهِ... وبعد أيام يمثل الصبي للشفاء ويعود لدراستهِ باجتهاد كما كان دون أي عودة تذكر للمرض أبدًا.

فتقوم أمهُ بزيارة الجدة "النقّية الذكاء" وتقدم بعض الهدايا لها والتي كانت عبارة عن حلي ذهبية يقدر وزنها بمئات الغرامات.. لكن "النقّية" وكعادتها تأبى أن تأخذ تكريمًا على ما كرمها بهِ الرب الإله.. وتستمر بدعواتها للكل بالستر والصحة والفرح والحب الذين إذا وجدهم إنسان وجَد معهم كل شيء.. لقد كان لها عزة نفس قوية كقوتها ولم تكن تعرف أن تطلب شيئًا من أحد حتى من أبنائها، ورغم كبر سنها الذي تجاوز المائة والخمس سنين.. فما زالت تبتسم للكبير والصغير.. وما زالت تحمل الفرح والأمل بالآتي.. وتبارك كل طفل يولد لأحفادها، وقد أحبت كثيرًا أولاد حفيديها الزوجين المُحبين الذين يشبهانها بعض الشيء ويحملان مبادئها التي ساعدتها على العيش بكرامة إنسانية كل تلك السنوات الطويلة رغم خبرات العذاب التي طبعتها في قلبها الأيام.

وبعد أشهر الفرح الذي عمَّ بين الناس للوضع الجديد الذي آل إليه البلد.. دبَّ الحزن في بيت هذهِ العائلة التي أُصيبت بفاجعة فقدان الأب المريض المُقعد، فقد فارق الحياة بعد نوبة غضب شديدة أصابتهُ بسبب ابنه الثاني الذي لم يعرف يومًا معنى المسؤولية رغم زواجهِ، ورغم أنهُ أصبح أبًّا.. فأدَّت نوبة الغضب تلك إلى إصابتهِ بسكتة دماغية فورية بعد سنوات صِراع قاسية مع المرض الذي جعلهُ مُقعدًا فاقدًا لساقيهِ الاثنتين وكفهِ الأيسر وبعض أصابع الكف.

ولم تنقضي أيام الحزن الأربعين حتى فقدت العائلة جدتها الكبيرة "النقّية الذكاء" التي عَرفت كيف تعطي ما أعطاها إياه الله من حب ورحمة وتضحية لكل من يحتاج، والتي أحزنها فراق أصغر أبنائها الذي ذكَّرها دومًا بالابن الأول الذي هاجر مع ذويه ولم ترهُ منذ ذلك الحين.. فقد أحست بعد فقدان ابنها الصغير والذي مات متألمًا بأنها فقدت كل معنى للحياة، فقد كانت مرتبطة بهِ جسديًا ونفسيًا ولم تستطيع أن تفارقهُ يومًا في كل أيام حياتها.. وربما بعد موتهِ قرَّرت اللحاق بهِ إلى العالم الآخر.. فلم تتناول الطعام ولا شربت الماء منذ رَحَل ولأيام طويلة بعد موتهِ.. إلى أن فارقت الحياة.. وأثارت العجب بذلك فعندما ماتت كانت بأتمِّ صحتها ومُحافظة على نضارة وجهها ونقاء جسدها وكأنها بعمر الثلاثين عام، وتعجب لهذا كل من

رآها، فقد كرمها الله طوال سنين حياتها وحتى لحظة وفاتها.. لقد كرمها الإله الذي لا يشبه كرمهُ كَرمَ البشر.. فبرغم كل ما فعلت الأم والجدة " النقّية الذكاء " المُضحية طوال حياتها لأبنائها وبناتها إلا أن في ساعة مماتها لم يتحملوا مسؤولية دفنها وتكريمها كأي إنسان.. فقد ذهب أحد أحفادها من ابنها الذي مات قبل أيام قليلة وهو يحمل جثتها "النقّية" على عربة صغيرة إلى دار عمهِ الأوسط قائلاً لهُ وبكل قسوة: خُذ أمك وأدفنها فلا علاقة لنا بها.. وابنها هذا أيضًا لم يشأ أن يدفنها؛ وعذرهُ هو أن أخاه المريض والذي مات من أيام قليلة كان قد أخذ كل ما تملك أمهما من ذهب ومال لذلك فعلى أبنائهِ تقع مسؤولية دفنها.. وقد تركوا جثتها لساعات في حديقة البيت إلى أن جاءت حفيدتها زوجة حفيدها المُحب والتي تعجبت من قسوة أهل زوجها وأهلها الذين تحججوا بعدم قدرتهم المادية على دفن أمهم الكبيرة الميتة التي أعطتهم كل شيء في سنين حياتها.. وعندها قامت هي وزوجها بدفن جدتهما " النقّية " وأقاما لها أيام عزاء مثل أي إنسان كريم.

ومرَّت الأيام... ولم يكف أهل الابن والزوج المُحب من استنزاف كل مدخرات ابنهم متحججين بأن الأموال التي كان يدخرها عند أبيه هي لكل العائلة وكذلك السيارة.. فقرر من وقتها الابن وزوجتهُ أن يتركا كل تلك الأموال والسيارة لأهل الزوج المُحب،

ويُنفذا فكرتهما بشراء بيت خاص بعائلتهما مع عدم التوقف رغم ذلك عن مُساعدة الأهل بكل ما يحتاجون إليه وتشجيع ومُساعدة من يريد إكمال دراستهِ.. ورجاؤهما بأن الحياة القادمة ستكون أجمل من التي مَضَت.

بعدها تحقق الهدف الذي من أجلهِ عملا طويلاً كل تلك السنوات، واشترا بيتًا كبيرًا جميلاً للاستقرار فيه بقية العمر، ومع بداية كل شهر كانا يقومان بشراء قطعة أثاث جديدة، وأدخلا أولادهما إلى المدارس إضافة إلى التربية البيتية التي تركزت على العلاقات الحميمية بين الأهل والأولاد، وكذلك ترسيخ وإنماء مبادئ الحب والرحمة والعدل والغفران لكل إنسان مهما كان.. كما أن أطفال هذهِ العائلة كانوا محسودين من كل أمثالهم من الأقارب لحب الوالدين الكبير لهم ولأنهم كانوا يملكون كل شيء تقريبًا، وهذا طبعًا بفضل تضحية الأبوين المُحبين لبعضهما وللأولاد.. ويبقى قرار العائلة بالانشغال بالعمل وإبداء أية مساعدة للأهل من جهتي الأب والأم فهما عائلة واحدة.

فقد كان الزوج المُحب الأب والصديق لإخوته كما لأبناء عمه وإخوة زوجته وكأنهم إخوته وربما أكثر، إذ كان ينصحهم ويُساعدهم ويقرر معهم ما يدرسون وما يعملون.. وكان لهم هو الأخ الكبير الذي لم يعرفوا سواه بعد أن تسبب إخوتهم غير الأشقاء بأذيتهم وجعلهم يمرون بأسوأ سنوات الفقر والظلم.

وبعد هذا بسنوات تفاجأ عائلة الزوجة المُحبة بعودة الأخ الذي قتل أختهُ واتجه جنوبًا بعد صراعهِ مع شقيقهُ الذي ورطهُ بتلك الجريمة.. لقد عادَ طالبًا الاستقرار في بيت أبيه ومع إخوته غير الأشقاء لأنهُ فتح محلاً في العاصمة مع أحد أصدقائه.

وهنا تبدأ من جديد المأساة لهذه العائلة، فقد أصبحت طباع هذا الابن أكثر سوءًا عندما عاد.. وكانت صورة إدمانه للكحول أبشع مما مضى، لكن لا مجال لإنكارهِ وطردهِ من البيت فهو ابن هذا البيت.. إضافة إلى أن إخوته غير الأشقاء أصبحوا الآن بعمر الشباب ومنهم من توظف في إحدى المؤسسات وبعدها تزوج من جارة لهم، ومنهم من يدرس طلبًا للدخول إلى الجامعة، والآخر عمل وهو بعد صغير ليُساعد بمعيشة عائلتهِ بعد زواج أختهم الكبرى مباشرةً.. أما الأخت الأخرى الصغيرة فقد تزوجت من قريب لهم إذ لم ترغب أن تكمل دراستها، والابن الصغير ما زال يدرس.

فالبيت قد أصبح يتكون من الأب الذي أصبح يقضي أكثر أوقات نهارهِ مع زوجتهِ اللطيفة المُحبة ويذهب عصرًا إلى إحدى المقاهي مع الرجال الآخرين من الجيران والأقارب.. وبهذا البيت أيضًا ثلاثة أولاد بعمر الشباب.

وقد كانوا لا يطلبون سوى سلام النفس بعد سنوات المعاناة في طفولتهم.. وفعلاً عاشوا بنفس مطمئنة إلى أن جاء هذا الأخ من

الجنوب ليستقر معهم من جديد، عندها بدأ يتشاجر في كل مناسبة مع أبيه وزوجة أبيه؛ خاصة في أوقات الليل عندما كان يأتي من المكان الذي تعود إدمان الكحول فيه لينهضهم من النوم مُجبرين ويبدأ بشتمهم ويتسبب بقلق راحتهم.. حتى بدأ يشتكي الجيران المُحيطون بهم من سلوكهِ المتكرر هذا كل ليلة.

أما أبوه وزوجتهُ فلم يعرفا ماذا يفعلان، ولم تنفع تدخلات إخوته وابن عمهُ زوج أختهِ الكبيرة، فقد كان يسمع النصائح ليوم واحد وبقية الأيام يرجع إلى سلوكهِ... إلى أن أتى يوم التحدي بينهُ وبين هذا البيت، فأما أن يعيش بسلام معهم أو يتركهم بسلام..

وقصة هذا اليوم بدأت مع إعداد الأم لطعام الغداء الذي كان على أحسن ما يرام في أثناء يوم عطلة، والكل مجتمعون في البيت ليتناولوا الغداء معًا، وفجأة نشب جدال بين هذا الابن الذي عاد منذ أشهر مُسببًا القلق لكل العائلة وبين أبوه المُسن، وكان الجدال بخصوص ما حدث في الماضي.. فما كان من الابن إلا أن رمى أرضًا كل الطعام والأواني وضرب أباه وقام بعضِّ كف يدهِ مما جعلها تنزف دمًا كثيرًا.. ثم تركهم وخرج من البيت... فاضطر الأولاد الشباب إلى نقل أبيهم لأقرب مستشفى لخياطة الجرح الذي في كف يدهِ والذي كان عميقًا، ومن هذه الحادثة قرَّر إخوته الشباب التصدي لهُ عندما يأتي ويكرر أفعاله لتي ازدادت سوءًا مع عودتهِ من الجنوب..

فأتى فعلاً بنفس اليوم ليلاً وكانوا نيامًا فبدأ أيضًا بالصراخ على أبيه وزوجتهِ وضربهما؛ وهو بالطبع بحالة سكر شديدة، عندها تصدى لهُ أخوه الذي تحمل مسؤولية البيت وهو صغير بعد زواج أختهم والذي كان منذ طفولتهِ يمارس أنواع الرياضات القوية في النوادي الرياضية، وكان وقتئذٍ يتمتع بجسدٍ ضخمٍ قوي وعضلات أقوى، فتصدى لهُ وأشبعهُ ضربًا فخرج بعدها من البيت وهو يشتم كل من فيهِ.. فأتى في اليوم التالي ظهرًا ليضرب إخوته من جديد؛ وكأنهُ قد تصور أنهم مازالوا صغارا.. وبدأ يضرب ويسحب أمهم؛ أي زوجة أبيه؛ من شعرها، وربما كانت هذهِ المرة المئة أو أكثر التي يفعلها، وكذلك ضرب أباه أيضًا.. وهنا تصدى لهُ إخوته الثلاثة بضربات موجعة.. فقرَّر عندها أن يرجع من حيث أتى.. فلا مجال بعد لعيش الحياة بهذهِ الطريقة، فكل شيء لابد يومًا أن يصل لنهايتهِ.

فقام ببيع المحل الذي يملك في العاصمة ليستقر جنوبًا... إلى أن عاد بعد سنوات طويلة من موت والدهِ إثر سكتة قلبية، وزواج إخوته كلهم، وقد كان قد تهذَّب قليلاً فوجد نفسهُ بلا عائلة وبلا مدخرات فقد تعود أن يبذر الكثير الذي كان يأتيه من عملهِ بعيشة مُسرفة وسخاء على أصدقاء جلسات السهر.. وبدأ يقيم هنا وهناك في بيوت إخوتهِ؛ خاصة أختهُ غير الشقيقة والمتزوجة من ابن عمهما والتي ساعدتهُ كثيرًا هي وزوجها وفي كل الظروف ولم يتخلا عنهُ طوال أيام حياتهُ.

وقد كان مصير هذا الإنسان الذي اتبع منذ بداية حياتهِ النصيحة السيئة لشقيقهُ الأكبر فأودا بحياة شقيقتهما ودفعا هما ثمن كل ذلك من نفسيهما وحياتهما التي لم تجد الراحة يومًا.. فقد ذهبت أيام حياتهما سدى، فالذي قتل لم تكن لهُ عائلة ولا نقود ولا حتى مأوى إلى أن فُقدَ نتيجة لأحداث العنف التي مرَّ بها البلد ولم يسمع عنهُ أحد شيئًا رغم محاولات إخوته الكثيرة في السؤال عنهُ في كل مكان.

أما الذي حَرَّضَ على جريمة القتل تلك فقد أصبحت لهُ عائلة مكونة من ستة أبناء نشأوا ولا علاقة تربط بينهم وبين الأم والأب السكير المُدمن والذي تقاعد من عملهِ بعد تجاوزهِ السن القانونية وأصبح يجلس في البيت وسط إهانات زوجتهِ وأولادهِ فقد كان بالنسبة لهم مصدر سخرية وقد عاش أيامهِ وهو مهان ومكروه من قِبل كل من في البيت وخارجهِ، وقد كانوا أولادهُ يقومون بضربهِ وشتمهِ كل يوم تقريبًا.. وربما صدق القول من أن كل شيء في الحياة دينٌ على الإنسان سيدفعهُ اليوم أو غدًا لكنهُ يجب أن يدفعهُ يومًا.

بعكس عائلة الأخت الكبيرة والتي تزوجت من ابن عمها المُحب في نفس اليوم والليلة والتي صار لها أيضًا ستة أبناء، لكنها كانت مؤسسة على صخرة المحبة والاحترام، وبقيت هكذا.. فالذي يزرعهُ الإنسان؛ إياه يحصد.

وأثناء كل هذه السنوات.. اندلعت حروب كثيرة وسنوات قحط وفقر ودمار شملت أرجاء كل البلاد وشملت كل أسرة إضافة إلى أحداث عنف هنا وهناك استمرت لعقود طويلة مخلفة وراءها الفقر والجوع والمرض والموت.

فأصبح مصير الشعب مرهونًا بتلك الأحداث، ومنهم عائلتا الزوجين المحبين، فقد كان نصيب إخوة الزوجين قضاء الأيام شتاءً وصيفًا في ساحات الحرب أو وسط القنابل لسنين طويلة.. ومع هذه السنوات تزوجوا وأنجبوا الكثير من الأبناء والبنات.. ومنهم من فُقد ومات في ساحات الحرب وشوارع العنف والإرهاب مخلفًا وراءه أبناءً يتامى ونفوس ألبسها الحزن ألوان السواد.

أما الأم اللطيفة التي عانت ما عانتهُ أثناء تربيتها لأبناء زوجها من زوجتهِ الأولى وأبناءها فقد أصيبت بمرض عُضال، وهذا طبعًا كان نتيجة لقلقها وخوفها المستمر على أولادها الأربعة طوال سنين الحروب، وبعد معاناة مع المرض بسنوات توفيت في بيتها بهدوء وسكينة ولم تطلب في ساعات موتها الأخيرة ألا رؤية عائلة ابنتها الكبيرة.. فقد أحبت أن تكون نظرتها الأخيرة لهذهِ البنت رفيقة دربها المتعب والتي لولاها لم يقف البيت صامدًا بعد سنوات الفقر... وبعد وفاة الأم تفرق من بقي من أبنائها في المدن شمالاً وجنوبًا طلبًا للراحة والرزق.

وقد استقرت العائلة المُحبة في نفس البيت الذي اشتراه الزوجان المُحبان منذ سنوات طويلة جدًا في العاصمة، مع عدم تخلي الزوجين ولا ليوم واحد عن مُساعدة الجميع حتى في أصعب الظروف.. وقد كانوا دومًا الملجأ لكل الأقارب وخاصة الإخوة الذين كانوا يلجأون إلى هذا البيت كلما ضاقت بهم سُبل الحياة، وفيه كانوا ينعمون بالسلام وبحلول لأصعب مشكلاتهم المادية والمعنوية.

وهكذا هي الدنيا... تعطي لكل ذي حق حقهُ.. فالذي يعمل خيرًا يرهُ.. والذي يعمل شرًا يرهُ أيضًا.. فهذا هو قانون ورحمة الله، ولا بد للإنسان أن يقبل بهِ كيفما تؤتيه أيام الحياة.

والآن أصبح لكل أحفاد المرأة الجدة " النقّية الذكاء " بطلة قصتنا.. أصبح لهم عائلة وأولاد وأحفاد كُثر بالطبع، ورثَ البعض المبادئ والقيم الأصيلة وحسب ما تربى، ومنهم من عاشوا قصص الأقدمين وأخذوا منها العبرة، ومنهم من صنع مبادئ لنفسه ورأى إنها الأفضل مع عدم التخلي عن ما توارثه.. وقد كان بعضهم كرماء أوفياء، والبعض الآخر يتصف بالمُكر واللؤم والبخل، فكل واحدٍ يشبه أباه أو أمهُ أو أقرب من له في العائلة الكبيرة.. فثمر الأشجار يأتي دومًا من قوة نفس البذرة ومن قوة الجذور وطبيعتها.

• • • •

هذه هي قصة عائلة واحدة ونهر واحد تفرع طبيعيًا بيد إنسان واحد إلى فروع وجداول، بعضها يُحب العطاء فيجري دائمًا ليعطي الماء الصافي لكل عطشان، والآخر يحب الركود في مكانهِ خوفًا على ما لديه فيكون بعد سنوات مستنقعًا لا يؤوي سوى الحشرات.

لطالما أحببتُ سماع أخبار ذاك الزمان وأحداث تلك القصص وأخيرًا أحببتُ أن أكتب إحداها.. هذه القصة الحقيقة قصة الابنة الجميلة والمميزة للحكيم الذي شفى كثيرين من طالبي الدواء والشفاء بهبة من لدن الله والذي أعطى دماء علمه وأدبه لأعز بناته لتكون حكيمة وحاكمة في بيتها رغم مرور مشوارها مع مشوار ذوي النفوس العكرة، ورغم تصلب شرايين المحبة في أفعال الكثيرين ممن عاصروها.

قصة استمرت أحداثها في الواقع عبر عشرات من السنين.. وهي محاولة مني ليرى كل من يقرأها بعينيه هو وبعيون الخير والرحمة ما عمل من خير أو شّر ويُقيم تلك الأعمال ولو لمرة واحدة، وعندها يستطيع أن يقرر أن يكون نهرًا أو جدولاً يجري مُتوجهًا إلى المحيط ليصب فيه.. فيعطي الخير لكل من يراه في طريق سيرهِ، وأما أن يجمع قطرات مائهِ الصافية في حفرة صغيرة يقبع فيها لسنوات حتى يتعفن صفاؤها ويجفُّ ماؤها..

ويتخلى عن الصفاء والشفافية اللذين هما مرآة لكل نفس بشرية.

فأما أن يرى كل إنسان ما بداخلهُ من لمعان بشفافية صافية تجعله يرى نواحي الخير في كل نفس مريضة وكل فعل شرّ.. وأما أن يغفل عنها فيكون مصيرهُ عمى القلب والعقل الذي يؤدي إلى التدحرج نحو طرق الانحطاط والإحباط واليأس.. عندها يخسر كل ماله حتى ما أعطاه إياه الإله من كرامة، ويعيش جهنم وهو ما زال بعد يعيش أيام حياتهِ على هذهِ الأرض.

الخاتمة

لكي تكون أرض العرب ، وسماء العرب ، وقصص كل العرب.. آياتٍ وعجائب تبهر أهل الأرض..

ولكي تكون أخلاقنا العربية.. أمثولة لكل إنسان وُجدَ على الأرض..

ولكي تكون مشاعرنا.. من محبة وصبر وشجاعة نفس وجسد.. خالية من أي ضغينة أو حقدٍ أو عنف..

ولكي يكون الزمان منا ولنا.. ولا نعيش يومًا نعيب فيه زماننا ويكون العيب فينا..

ولكي تكون أفكارنا وكلماتنا عن حياتنا وحضارتنا وتاريخنا.. ممزوجة بأعمال خير تشهد على الأصول التي منها صرنا..

نصلّي...

المؤلفة في سطور

- كاتبة وروائية من مواليد بغداد - العراق
- عضو اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين
- ليسانس فلسفة وتاريخ حضارات / بغداد ٢٠٠٢
- نشرت قصصها: بجريدة الثورة ، جريدة العراق ، مجلة ألف باء بغداد ، مجلة كل الأسرة ، مجلة الصدى ، دبي.

- الإصدارات :

- لأنهم صانعو الغد : دراسة في تربية الأطفال، بغداد ٢٠٠٣
- في درب السماء : مقالات، بغداد ٢٠٠٤
- نور في بداية النفق : قصص، سندباد للنشر، القاهرة ٢٠٠٩
- عندما تصدر الحياة أحكامًا : رواية
شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٣
- ذاك هو العراق : (تحت الطبع)

- البريد الإلكتروني: lumamuneer@yahoo.com

شمس للنشر والإعلام

رؤية جديدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر،تأسست "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، وبين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات، تتمثل في:

- إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ، وتلبية حاجاته من المعرفة.
- تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على إبرازها.
- الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.
- حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتّاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.

- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.
- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية.
- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.
- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

شمس
للنشر والإعلام

(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065
www.shams-group.net